الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم :الفلسفة

التخصص: فلسفة تطبيقية

مذكرة مكملة لنيل شهادة ماستر " ل.م.د " في الفلسفة االتطبيقية

بعنوان:

الابعاد الانسانية في التصوف
الانساني عند الامير عبد القادر

ـاعداد:

*مزري عزالدين

*عباد اليزيد

الاستاذ المشرف	الاستاذ الرئيس	الاستاذ المناقش
د-كحول سعودي	د-العالم عبد الحميد	أ-فرحات فريدة

السنة الجامعية: 2020/2019

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الحمد لله رب العالمين، والشكر لجلاله سبحانه وتعالى الذي أعاننا على انجاز هذه المذكرة.
نتقدم بالشكر والامتنان للأستاذ المشرف " كحول سعود" الذي تابع مسيرة البحث منذ كان برعما إلى غاية استقامته وتمامه. على الأقل شكلا لأن الكمال الحقيقي لا يملك البشر الوصول إليه ــجزاه الله خيرا على نصائحه الثمينة وإرشاداته القيمة ومساندته المعنوية، وصبره على أسئلتنا الكثيرة وطلباته الدائمة.
كما لا يفوتنا أيضا أن نتقدم بالشكر لكل من ساعدنا في إخراج هذا البحث وتصحيحه ولا ننسى أن نتوجه بفائق شكرنا واحترامنا للاستاذ "علي شويني" الذي دعمنا وارشدنا ووجهنا بنصائحه الثمينة ورافقنا طوال مشوارنا الدراسي، والشكر الجزيل لكل الاساتذة الذين أوصلونا الى ما نحن عليه اليوم، اليهم فائق الاحترام.

مقدمة

مقدمـــــــة:

التصوف ظاهرة سلوكية قديمة عند الإنسان نشأت كرد فعل لظلم الأقوياء للضعفاء وشعورهم بالحرمان والاضطهاد، حيث ارتبط التصوف بحياة الأمير عبد القادر ارتباطا وثيقا، ويعد نموذجا حيا لتجربة روحية وفكرية فريدة من نوعها في العصر الحديث، والجدير أن التجربة الصوفية ليست تجربة تأملية ولا مذهب دينيا وإنما هو خبرة داخلية يتأقلم فيها المتصوف مع عالمه الداخلي سواء الشعوري أو اللاشعوري فالعقل هو يتلقى تلك الظاهرة وكذا أوصافها والتعبير عنها وعلى هذا الأساس فان التصوف عند الأمير عبد القادر أثبت دوره في إصلاح مجتمعات بأكملها ويعد أحد العوامل التي وحدت بين الشعوب ولمت شملها بعيدا عن التأثيرات والحدود والسياسة وغيرها من الحدود المختلفة.

إن أهمية الموضوع تكمن في أن الأمير عبد القادر استطاع بفضل ذكائه السياسي وحنكته الحربية أن يقوم بتكوين الدولة رغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها البلاد هذا بالإضافة إلى اهتمام الأمير بالتصوف العلمي التطبيقي على خلاف غيره من المتصوفة.ونظرا لأهمية موضوع التصوف فقد تم اختيارنا له كبحث حاولنا تقصي الحقائق والإيغال فيه قدر الاستطاعة، ومن جملة الدوافع التي كانت حافزا مهما في إختيار موضوع البحث

دوافع ذاتية ودوافع موضوعية بالنسبة للدوافع الذاتية بحكم تخصص فلسفة وإعجابنا بهذا الموضوع لتفتح أبواب الاهتمام بالتصوف والتعمق فيها، والرغبة التبحر في تراثنا الأصيل.

أما الدوافع الموضوعية تمثلت في معرفة تاريخ ونشأة الحركة الصوفية والتعرف على طبيعة الفكر السياسي والديني للأمير عبد القادر.

أما صعوبات الدراسة التي واجهتنا أثناء البحث في هذا الموضوع تمثلت صعوبات موضوعية وأخرى ذاتية فالصعوبات الموضوعية تكمن في قلة المراجع المتعلقة بموضوع الدراسة أما الصعوبات الذاتية تتمثل في مشقة التنقل في إلمام المعلومات المتعلقة بالموضوع وذلك بسبب جائحة كورونا covid 19 بالإضافة إلى ضيق الوقت لانشغالات العمل.

من هذا المنطلق نطرح الإشكالية الآتية:

-هل ينحصر التصوف عند الأمير عبد القادر في أخلاق الرجل الكريم، أم يشمل أبعاد انسانية أوسع؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية اتبعنا المنهج الوصفي التاريخي، حيث المنهج الوصفي تمثل في تعريف بعض المفاهيم الأخرى، التي تتعلق بالبحث وبلورة الحلول، والمنهج التاريخي تمثل في تجميع أحداث تاريخية مثل المراحل التاريخية لتصوف الأمير عبد القادر.

إلا أن البحث في هذا الموضوع ليس من السهل لأن الباحث مطالب بالإلمام بكل الدراسات التي تناولت موضوع بحثه وليس بالأمر الهين ومع ذلك لم ندخر أي جهد في سبيل الاستفادة من الدراسات ونذكر منها:

-الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري المواقف الروحية والفيوضات السبوحية.

-فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا.

-الشاعر الأمير عبد القادر، جمع وتحقيق وشرح الدكتور العربي دحو.

-عشراتي سليمان الأمير عبد القادر مفكر.

-مؤسسة الأمير عبد القادر، الحياة الروحية لأمير عبد القادر.

ومنه اتبعنا خطة مكونة من ثلاثة فصول في الفصل الأول تناولنا مفهوم التصوف عند الأمير، حيث تعرضنا إلى مفهوم التصوف ثم إلى التصوف الإسلامي ونشأته، أما الفصل

الثاني تطرقنا إلى النزعة والابتعاد الإنسانية في التصوف عند الأمير عبد القادر حيث يندرج ضمنه مفهوم النزعة الإنسانية في الإسلام ثم تناولنا الأسباب التي دفعت الأمير عبد القادر على إتباع طريق التصوف ،مرورا بالمراحل التاريخية لتصوف الأمير عبد القادر وأخيرا الأبعاد الحضارية له.

والفصل الثالث كان تحت عنوان التسامح والحوار عند الأمير عبد القادر، ومجاهداته قمنا بدراسة التسامح الديني عند الأمير عبد القادر، ثم تطرقنا إلى الأمير والحوار مع الآخر ويعد ذلك الحوار مع رجال الكنيسة وأخيرا مجاهدات الأمير عبد القادر.

الفصل الأول

مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر والتصوف الإسلامي

تمهيد:

إن الإنسان في صراع دائم منذ وطئت أقدامه على هذه الأرض، ولما عجز عن الوصول إلى إيجاد حل لمشكلاته وصراعه الداخلي لجأ إلى الله عز وجل وتفرد به وأصبح يناجيه الذات الإلهية فكانت هذه المناجاة إشراقا وتقربا إليه طبعا في حبه، متوجها إلى خالقه، شاكيا إليه الأمة وحرمانه واشتياقه إلى قربه والنظر إلى وجهه الكريم، ومن هذا انبثق ما يسمى بالتصوف أو المتصوف وسمي بهذا الاسم لأنه ينفرد إلى الله عز وجل لذاتيته وليس لدينه أي ليس طمعا في جنته وإنما طمعا في رضاه.

فأول سؤال يواجهنا، ما هو التصوف؟

1/مفهوم التصوف:

أ-لغة: جاءت كلمة التصوف من صاف الكبش يصوف صافا صار ذا صوف، ويقال: صاف يصيف صيفا صيفوفة من الياء أيضا، وصاف عني وجهه "مال تصوف الرجل تصوفا صار صوفيا وتخلق بأخلاق الصوفية" و "الصوفي عند أهل من هو بنفسه باق بالله تعالى مستخلص من الطبائع متصل بالحقيقة الحقائق نسبة إلى الصوف أو سوفوف باليونانية بمعنى الحكمة.[1]

والتصوف التخلق بالأخلاق الإلهية وهو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا و "التصوف مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل وقيل هو تصفية القلب من مواقفه البرية...و المتصوف: "هو الذي يجاهد لطلب درجة الصوفية".

المتصوف هو الذي نفسه بالصوفي.[2]

لم تعرف كلمة التصوف في لغتنا اشتقاقا واحدا يتفق عليه، حيث كثرت الأقوال في اشتقاق واحدا يتفق عليه، حيث كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف.

-إذ قيل أن التصوف مشتق من الصوف دلالة على اختيار ابسط أنواع الثياب وأكثرها خشونة، وتجنب لأي ضرب من الرفاهية أو العناية بالمظهر.

وقيل أن التصوف من الكلمة اليونانية "سوفيا" التي تعني الحكمة.

دلالة على أن التصوف يهدف إلى المعرفة اليقينية التي تهدف إليها الحكمة، إن كانت وسيلة إلى ذلك هي الكشف الباطني أو الإلهام وليس أعمال أو النظر الذهني الرتب.[3]

وقيل أنها مشتقة من "الصفو" بمعنى الصفاء.

وقيل أيضا أنها مشتقة من "الصف" لان الصوفية في الصف الأول أمام الله.

-وقيل أنها نسبة لأهل "الصفة" وكانوا قوما من فقراء المهاجرين الأنصار بينت لهم صفة في مؤخرة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وكانوا يقيمون فيها معروفين بالعبادة.[4]

---

[1] - بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان: لبنان، د، ط، 1987، ص 525.

[2] - بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان، د ط، 1997، ص 525.

[3] - - محمد حسين مهدي بخيت: الفلسفة الإنسانية بين الأصالة والتقليد، عالم الكتب الحديث للنشر، الأردن، ط01، 2013م، ص 154.

[4] - أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط03، ص 31.

-وقيل سموا بذلك لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن لا تستقيم هذه النسبة من جهة اللغة أيضا لان الصحي وكان كذلك يقال صنفي [1] فهذين القولين يبينان لنا أن الصوفية ليسوا من أهل الصفة والتصوف طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل، لتزكو النفس وتسموا الروح "و" وعلم التصوف بمجموعة من المبادئ التي يعتقدها المتصوفة والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم، و "الصوفي من يتبع طريقة التصوف والعارف بالتصوف"[2].

وفي الرسالة القشرية في باب التصوف "قال الأستاذ: الصفاء المحمود بكل لسان، ضده الكدورة وهي مذمومة...خرج الرسول صلى الله عليه وسلم متغير اللون، فقال ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر فالموت اليوم تحفة لكل مسلم".[3]

وقال أيضا مشيرا إلى معنى التسمية أنها "غلبت على هذه الطائفة فيقال: رحل صوفي وللجماعة الصوفية لان الحق من صافاهم واخلص لهم النعم بما أطلعهم عليه ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: "متصوف" وقيل "سمو صوفية لأنهم في صف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه".[4]

ب-اصطلاحا:

تعددت مفاهيم و تعاريف التصوف، فقد حاول الكثيرون وضع تعريف شامل جامع لضبط ماهيته، وقد وصلوا إلى حقيقة واحدة عبروا عنها بصيغ مختلفة ولكنها متقاربة في مضمونها، وفي الواقع أن الصوفيون لم يقصدوا تعريف التصوف تعريفا علميا وإنما أرادوا التعبير عن أحوالهم الخاصة ومواجدهم في لحظة معينة، فكل واحد منهم يعبر عما وجد، وينطق بحسب مقامه، ومن أهم هذه التعريفات نذكر قول القصاب "هو أخلاق الكريمة ظهرت في زمن كريم من رجل كريم مع قوم كرام".[5]

وقال الجنيد "هو أن يمتلك الحق عندك ويجيبك به".

وقول رويم: "هو البقاء مع الله على ما يريد لا تملك شيئا ولا يملك شيئا".

وقول سمنون: "هو أن تكون مع الله بلا علاقة".

كما نقل الطوسي أبو نصر سراج في كتابه الذي يعد أقدم مرجع صوفي عن الصوفي أنه قال: كان الأصيل صفوي، فانشغل ذلك فقيل: "صوفي" ويمثل ذلك نقل عن أبي الحسن الكناء، هو مأخوذ من الصفاء.[6]

---

[1] - صادق ابن سليم صادق: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية عرضا ونقدا، مكتبة الرشد ، الرياض، ط01، 1995م، ص 27.

[2] - إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار: المعجم الوسيط، ج 01، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، اسطنبول، تركيا، ط 02، ص 549.

[3] - القشيري: الرسالة القشيرية-مكتبة ومطبعو محمد علي صبيح وأولاده، د ط، 1981م، ص 216.

[4] - المنحنى الصوفي في الشعر العربي الحديث: رسالة لنيل الماجستير في الأدب العربي الحديث: حفيظة سليماني إشراف أ . د محمد عباس، ص 05.

[5] - القشيري: الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص 150.

[6] - المرجع نفسه: ص 150

يقول التوحيدي: "التصوف اسم يجمع أنواعا من الإشارة وضروريا من العبارة" ، فهو علم يدور بين إشارات اللاهية وعبارات وهمية والتفسير الصوفي ينقل مفهوم النص الإسلامي من الظاهر إلى الباطن بعبارة تفصح كما يشعره العارف في قلبه من أفكار متضاربة وأحاسيس متدافعة و احباطات متراكمة فأتت لمن وطأة الحياة الاجتماعية وأشكالها التي فرضت نفسها مع نمو التحضر.

-وينقل المتصوفة أحيانا الباطن إلى العلن بعبارة تسمى شطحا إذا كانت خالية من أي رقابة أو تنظيم، والمقصود بالتنظيم اعتماد بين المعرفة الفقهية ونهجها وبناء اللغة بدلالتها ومبانيها فهو كلام يترجمه اللسان عن وجه يفيض عن معدنه مقرون بدعوى.[1]

يقول أبو بكر الكتاني المتوفى سنة 233ه: "التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء".[2]

أما أبو محمد الحريري فيقول: "التصوف الدخل في كل خلق نسبي والخروج من كل خلق ديني".[3]

يقول الشيلي: "التصوف بلوؤه معرفة الله ونهاية توحيده".[4]

وقال بشر ابن حارث: "الصوفي من صفت لله معادلته، فصفت له من الله عز وجل كرامته"

وقال أبو حفص: "التصوف كله أدب ولكل حالة أدب ولكل مقام أدب...فمن لزم أدب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث برج القبول...و حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لو خشع قلبه لخشعت جوارحه".[5]

وقد ورد في معجم المحيط أنه: تصفية القلب عن مواقفه البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية ومجانية الدعاوي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة وإتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة وقيل هو ترك الاختيار، وفيل بدل المجهود،و الأنس بالمعبود، وقيل مراقبة الأحوال ولزوم الأدب...[6]

-كما ذهب العلامة ابن خلدون إلى وصف بأنه: "علما من العلوم الشرعية الحادثة في الملة فهو العكوف عند العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زحف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه".[7]

كما اختلف الناس في بدئ ظهور هذه الكلمة كاختلافهم في أصله وتعريفه، فذكر ابن تيمية وسبقه ابن الجوري وابن خلدون في هذا أن لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون

---

[1] - رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان، ناشرون، ط 1999م، ص 177.

[2] - عبد الحليم محمود: قضية التصوف المنقذ من الضلال، دار المعارف، ط05، ص 38.

[3] - أحمد السرباصي، الغزالي، دار الجبل، بيروت، ص 150.

[4] - عبد الفتاح محمد سيد أحمد، التصوف بين الغزالي وابن تيمية، دار الوفاء، ط 01، 2001م، ص 16.

[5] - المرجع نفسه، ص 150.

[6] - المنحنى الصوفي في الشعر العربي الحديث: رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث: حفيظة سليماني إشراف أ، د محمد عباس، ص 05.

[7] - العيد العيلاوي، التصوف من إشكالية الفهم إلى نية الممارسة، مجلة المخبر، العدد الثامن، 2012م، ص 131.

الثلاثة الأولى، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد ابن حنبل أبي سليمان الداراني وغيرهما، وقد روى عن سفيان الثوري، أي تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسين البصري، وقال السهرودي: "وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول صلى الله عليه وسلم، وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلا المائتين من الهجرة العربية".

وصرح عبد الرحمان الجامي: "أن أبا هاشم الكوفي أو من لقب بالصوفي ولم يسم أحد قبله بهذا الاسم".[1]

يقول الجنيد: "الذي سئل عن التصوف، رد قائلا: التصوف أن تكون مع الله بلاغة وقال أيضا: التصوف مبني على تنامي خصائص السخاء، والرضا، والصبر، الإشارة، والعربة ولي الصوف والصوف والسياحة والفقر".[2]

-فهذين التعريفين يؤكدان أن التصوف هو الإخلاص لله تعالى في وحدة ولا يبتغي أن تترك أن علاقة من العلاقات تلهينا عن التقرب من الله بل يتركون كل العلاقات الحسية إلى علاقتهم بالله.

-وان ما ذهب إليه الجنيد في تعريفه الأول يبدو انه تعريف مبالغ فيه كون الإنسان لا يمكن له أن يقطع جميع علاقته مع غيره من البشر.[3]

كما انه من غير الممكن أن يعيش وحده فقط لأن المتصوفة نجدهم إلى يومنا هذا ينفردون في المساجد والزوايا.

-وأما الجنيد فقد ربط التصوف بجانب الأخلاق كالرضا بقضاء الله وقدره والتواضع عند التعامل مع الآخرين ويظهر هذا من خلال لبسهم للصوف فهذا الأخير دليل على الفقر والتواضع وكذلك الصبر عند الشدائد ففي حسد الحديث عن الأخلاق نجد العديد من المتصوفين الذين ربطوا تعريفاتهم بهذا المفهوم، حيث كان التصوف علما للأخلاق الدينية وهو من الممكن أن ترتبط الناحية الأخلاقية للتصوف بالكلام عن النفس الإنسانية ومن ثمة فان مبحث الأخلاق عند الصوفية قائما على أساس تحليل النفس الإنسانية لمعرفة أخلاقها الذميمة واستبدالها بأخلاق محمودة.

2/التصوف الإسلامي ونشأته:

التصوف الإسلامي الحقيقي مبناه الحقيقي على الكتاب والسنة وعلى أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وان تعرجت مؤخرا تعاليم التصوف وتلونت بعض فروعه ألوانا عدة، واتجهت تلك الفروع اتجاهات مختلفة بسبب المذاهب الموروثة للداخلين المحدثين في الإسلام من هنود وفرس ومسيحيين، ولاسيما في عصر الترجمة الذي شجع عليه المأمون، من بعده الخلفاء العباسيين فترجم المسلمون كتبا كثيرة من التصوف الهندي والفارسي واليوناني، وضمت بعض فروع التصوف الإسلامي الخالص بها دخل عليها من النزاعات الأفلاطونية

[1] - إحسان الهي ظهير: التصوف المنشأ و المصدر، دار الإمام المجددة، القاهرة، مصر، ط 01، ص 48-47.
[2] - صادق ابن سليم صادق: المصادر العامة الملتقى عند الصوفية عرضا ونقدا، ص 23.
[3] - المرجع نفسه، ص 27.

الحديثة أو القديمة وبعض المذاهب الهندية والفارسية في التصوف كنظرية الحلول والاتحاد والتقمص والتناسخ وما إلى ذلك.

"ولكل دين تصوفه وطبعه".[1]

ومع ذلك ظل التصوف الإسلامي الصميم والذي مصدره الكتاب والسنة قائما على حالة في صدور رجاله وفي الكتب الإسلامية كتواليف الحسن البصري والقشيري وأبي طالب المكي والسراج والغزالي وشد عن ذلك أمثال الحلاج الذي قال بالحلول والقائل "أنا الحق وصافي الحية سوى الله".[2]

وقد مر التصوف في الإسلام بمراحل متعددة، وتواردت عليه ظروف مختلفة، واتخذ تبعا لكل مرحلة وفقا لما مر به ظروف ومفاهيم متعددة ولذلك كثرت تعريفاته، وكل تعريف منها قد يشير إلى بعض جوانبه دون البعض الآخر، ولكن يظل هناك أساس واحد للتصوف لأخلاق عليه، وهو أنه أخلاقيات مستمدة من الإسلام ولعل هذا ما أشار إليه ابن القيم في "مدارج السالكين" قائلا: "واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العالم على أن التصوف هو الخلق في الصفاء، وعبر عند الكاتبي بقوله: "التصوف خلق، فمن زاد عليه في الخلق زاد عليك في الصفاء".

التصوف إذن في أساسه خلق، وهو بهذا الاعتبار روح الإسلام لأن أحكام الإسلام كلها مردودة إلى أساسي أخلاقي، ذلك أننا نظرنا إلى القران الكريم فسنجده قد جاءنا بأنواع مختلفة من الأحكام الشرعية وهي تندرج بوجه عام تحت ثلاثة أقسام رئيسية العقائد والفروع من العبادات والمعاملات والأخلاق.

أما العقائد فتشمل الإيمان بوجود الله الصانع القادر المختار ووحدانيته وعبادته وحده لا شريك له الإيمان بملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأما الأحكام الشرعية الفرعية التي تضمنها القرآن فتشمل أحكام العبادات و الكفارات المالية وأحكام الأسرة وأحكام الجرائم والعقوبات المقررة عليها وأحكام الدولة وما إلى ذلك.[3]

بقيت بعد ذلك الأخلاق في القرآن فقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تحت مكارم الأخلاق، والحقيقة، أن أخلاق الإسلام هي أساس الشريعة بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة سواء ذلك في الأحكام الاعتقادية أو الأحكام الفقهية إلى الأساس الخلقي كانت صورة لا روح فيها.[4]

يبين لك إذن أن جوهر الدين هو الأخلاق، ولعلك تدرك بعد هذا عمق المعنى في قوله تعالى مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَ انَّكَ أَعَلَى خُلُقٍ عظِيم ﴾ [5]، وفي قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ﴾.

---

[1] -إحسان الاهي ظهير: التصوف المنشأ والمصادر، دار الإمام المجد، القاهرة، مصر، ط 01، ص 126.

[2] - المرجع نفسه، ص 126.

[3] - عثمان الطاهر المجمد: مقال التصوف الإسلامي: جسم حضاري وإنساني بين الشرق والغرب، ج 01، نشر يوم 11-06-2011.

[4] - عثمان الطاهر ألمحمد: المرجع السابق.

[5] ، - سورة القلم، الآية 04.

وقد رسم لنا الإسلام طريقة التحقق بالكمال الأخلاقي الذي دعا إليه فأمرنا بجهاد النفس بتحليتها عن مفهوم الأخلاق، وتحليتها من الأخلاق المحمودة، وقد ورد في قول الرسول صلى الله عليه وسلم أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر.

من الواضح أن التصوف الإسلامي لا يمكن حصره في تعريف جامع شامل وان المتصوفين لم يعرفوا التصوف إلا من خلال أحوالهم ومجاهداتهم التي عايشوها واختبروها وقد بلغت هذه التعاريف من الكثرة العددية حتى قال أحد شيوخ التصوف: " إن قد حد ورسم وفسر بوجوده تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها إلى التصوف صدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه".[1]

ولاحظ ابن خلدون الكثرة العددية الساحقة في تعاريف الصوفية وردها إلى سببين هما:

اختلاف أحوال المتصوفين، وتطور الحياة الإسلامية، فمن المتصوفين من عبر بأحوال البداية كقول الحريري: "التصوف الدخول في كل خلق سيء والخروج من كل خلق ديني"، ويقول القصاب: "هو أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام، ومنهم من عبر بأحوال النهاية، فقد سئل الجنيد عن التصوف فقال: "أن تكون مع الله بلا علاقة". [2] وقال أيضا: "التصوف ذكر من اجتماع، ووجد من استماع، وعمل مع إتباع".

وقال معروف الكرجي: "التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق".

وقال الكناني: "التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء" وقال الشيلي: "التصوف الجلوس مع الله بلا هم".[3]

وخلاصة كل هذا، أن أفضل طريق للحكم على طائفة معينة وفئة خاصة من الناس هو الحكم المبني على أرائهم وأفكارهم التي نقلوها في كتبهم المعتمدة والرسائل الموثوق بها لديهم يذكر النصوص والعبارات التي يبني عليها الحكم، ويؤسس عليها الرأي ولا يعتمد على أقوال الآخرين.

ونقول الناقلين، اللهم إلا للاستشهاد على صحة استنباط الحكم واستنتاج النتيجة.

ورغم أنها طريقة وعرة وشائكة وصعبة وقل من يسلكها، إلا أنها هي الطريقة الصحيحة المستقيمة التي يقتضيها العدل والإنصاف، ولهذا عندما تتعمق في تعاليم الصوفية الأوائل والأواخر، وأقاويلهم المنقولة منهم، والمأثورة فيكتب الصوفية القديمة والحديثة نفسها، نرى فرقا شاسعا بينهما وبين تعاليم القرآن والسنة، وكذلك نجد جذورها وبذورها في سيرة سيد الخلق محمد صلوات الله عليه وأصحابه البررة خيار خلق الله وصفوة الكون، بل يعكس ذلك نراها مأخوذة مقتبسة من الرهينة المسيحية، والرهينة الهندوكية، وتسك اليهودية، وزهد البوذية والفكر الشعوري الإيراني المجوسي....وغيرها.[4]

---

[1] - فؤاد الصالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص 114.

[2] - السراج الطوسي: اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي صححه كامل مصطفى الهيداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 01، ص 123.

[3] - القشيري: الرسالة القشيرية، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده، د ط، 1، 1981، ص 210.

[4] - إحسان الاهي ظهير: كتاب التصوف المنشأ والمصادر، دار الإمام المجدد، القاهرة، مصر، ط01، ص 58.

نشأة التصوف الإسلامي:

إن البذرة الأولى للتصوف الإسلامي هي الزهد "ثم بعد ذلك تطور الزهد إلى التصوف الذي هو أعلى مراتب الزهد وبالتالي فهو يعتبر تمهيدا للتصوف، إن الثورات والفتن والحروب الأهلية التي قامت في الإسلام مثل حركة الفتنة الكبرى التي ذهب ضحيتها الخليفة الثالث عثمان بن عفان وما تلاها من معارك كمعركة الجمل ومعركة صفين بالإضافة إلى مأساة كربلاء التي انتهت باستشهاد الحسين ابن علي، أن كل هذا أثر في الصحابة والتابعين ودفعهم على الاعتزال السياسي والانقطاع عن الدنيا وشهواتها وأهوائها والاتجاه إلى الزهد والعبادة بالإضافة إلى تعاليم الدين الإسلامي فالقران أيضا يحث على الورع،[1] وترك الدنيا ويعظم من شأن الآخرة فهو يدعوا إلى الصلاة والصوم وعبادة الله من دون سواه.

فالقرآن الكريم يصور الجنة والنار حيث يرغب في الجنة ويرهب من النار والملذات والشهوات وهذا ما دفع بالكثير من المسلمين إلى مرضاة الله والرغبة في دخول الجنة ويرهب من النار والملذات والشهوات وهذا ما دفع بالكثير من المسلمين إلى مرضاة الله والرغبة في دخول الجنة ونفرت بعضهم من الأهواء خوفا من النار، بالإضافة أيضا إلى ثورة المسلمين الروحية ضد النظام الاجتماعي والسياسي حيث قاموا بالاعتزال والابتعاد عن الحياة الاجتماعية والاتجاه إلى الزهد.

إن هذه الفوضى السياسية وما صاحبها من قلق روحي ومظاهر اجتماعية والتفاوت الطبقي وتدهور القيم الأخلاقية بانتشار اللهو والمجون كان له دور كبير أيضا في تنمية روع الورع والابتعاد عن الانشغال بالحياة المادية والاتجاه نحو الحياة الروحية، حيث يقول نيكلسون لورين: "وقد انفرد القرن الأول في الإسلام بالعوامل المثيرة التي شجعت على ظهور الزهد وانتشاره فالحرب الأهلية ...و التطرف العنيف...كل أولئك عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها".[2]

نستنتج من هذا القول تأكيد نيكلسون على ظهور الزهد نتيجة الحروب الأهلية والتصوف اللذان حركا الناس نحو الزهد وهذا أيضا ما يؤكده جولد تسيهر الذي يقول: "إن الميل إلى الزهد كان مرتبطا....احتجاجا على ما ينكرون من حكومة ونظام إلى حياة الاعتكاف والزهد".[3]

وهكذا تجسدت حركة الزهد في نفوس المسلمين والزهاد الذين نظروا إلى الحياة ومتاعها نظرة احتقار وزهد، حيث ظهر في القرن الأول الهجري مجموعة من المسلمين الذين حبذوا الإقامة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسمو "بأهل الصفة" وقد أطلق عليهم لفظ الزهاد ومنذ تلك اللحظة شاع استخدام هذا اللفظ في العالم الإسلامي.[4]

---

[1] - أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط03، ص 61.
[2] - عرفان عبد الحميد فتاح: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، ط 01، 1993م، ص 50.
[3] - المرجع نفسه، ص 51.
[4] - عبد الحكيم عبد الغني قاسم : المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي، ط 01، 1989م، ص 48.

وظهور مدارس مختلفة في الزهد مثل مدرسة المدينة التي ظهر فيها زهاد كثيرون ومن بينهم، أبو عبيدة بن الجراح توفي سنة 18 ه، وسليمان الفارسي توفي سنة 32 ه، ....، ومدارس البصرة ومن أبرز زهادها حسن البصري توفي سنة 110 ه، ومدرسة الكوفة ومن زهادها أيضا سعيد بن جبير، وأخيرا مدرسة مصر ومن ممثليها سليم بن عنتر التجيبي.[1]

ومن العوامل الأخرى التي دفعت أيضا إلى حركة الزهد:

- ✓ الرعب الذي ألقاه القرآن الكريم في قلوبهم من هول يوم القيامة وعذاب النار.
- ✓ ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصي مما دعاهم إلى قضاء حياتهم في التوبة والاستغفار.
- ✓ محاربة الارستقراطية المتحكمة وذلك بإشاعة المهر الزهدي في الإسلام.
- ✓ تصحيح الواقع والعودة بالمجتمع إلى مثله وقيمه.[2]

لقد لاحظ نيكلسون أن بعض متأخري الزهاد اقتربوا من التصوف إلا أنهم لم ينزاحوا عن دائرة الزهد إذ أنه خلال القرنين الأول والثاني الهجريين لم يستطيع أحد أن يميز بينهما، وان هناك بعض من المسلمين سمو أنفسهم باسم الصوفية إلى غاية القرن الثالث هجري ثم تمييز الزهد عن التصوف فهم كانوا زهاد في مرتبة قريبة جدا من المتصوفة حيث يقول نيكلسون: "في العصر المبكر ..لا يستطيع أحد أن يفضل الزهد عن التصوف ...بل إن كثيرا من المسلمين اللذين أطلقوا على أنفسهم اسم صوفية...لم يكونوا في الحقيقة إلا زهاد على خط قليل من التصوف، فالأولى إذا أن تعتبر أوائل الصوفية منتمين إلى حركة الزهد التي نحن بصددها".[3]

نستنتج من هذا القول أن البذرة الأولى للتصوف هي الزهد، وأن التجربة الروحية للزهاد و النساك تطورت ووصلت إلى درجة التصوف ومما أدى إلى ظهور التصوف هو ظهور البدع والتداعي بين الفرع حيث ادعى كل فريق بأنه يضم زهاداً وعلى اثر هذا انفرد خواص من أهل السنة بظهور طائفة سموا بالمتصوفة.[4]

مفهوم التصوف في بلاد المغرب:

رغم التاريخ السائد أن أصول التصوف الإسلامية تعود إلى المشرق العربي إلا أن الحقيقة أثبت بأن معظم التيارات الصوفية في المغرب الأقصى، وقد ازدهرت المدارس الصوفية مع بداية انحطاط الحضارة الإسلامية وسقوط الخلافة وتشرذم العالم الإسلامي الرازحة تحت تبرر الاستعمار، كالجزائر والمغرب وتونس وأخذت خصوصيات مغاربية محضة بتأقلمها مع وضع المجتمع المحلي الثري يتنوع ثقافاته المكتسبة عبر العصور

[1] - أبو التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص 72 – 81.
[2] - عرفان عبد الحميد فتاح: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، مرجع سابق، ص 52.
[3] - ابو الوفا النفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص 82.
[4] - عرفان عبد الحميد فتاح: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، مرجع سابق، ص 74.

والحضارات المتعاقبة معلنة بذلك استقلاليتها عن كل نفوذ مشرقي أو تبعية اقتداءً بالفكر السياسي السائد آنذاك مما ساهم في استقرارها وترسيخ فكرها.[1]

ويبدو أن كل الطرق الصوفية في المغرب عموما وفي الجزائر على وجه الخصوص تعود جذورها إلى أسرار الصوفية الأربعة الرئيسية القادرية و الشاذلية و الخلوتية والحضرية، دون سواها وع ظهور الإسلام الإصلاحي في العالم الإسلامي على يد كل من جمال الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الحميد ابن باديس، أصبح للطريقة دور مزدوج يتمثل في مقاومة كل مساس بالإسلام التقليدي من جهة والمحافظة على كل قيم مدرسة على حدا من جهة أخرى، علما أن الزوايا في الجزائر تنتمي إلى المدارس الصوفية المشهورة نسبة لشيخ عبد القادر الجيلاني و الشاذلية نسبة لشيخ أبو الحسن الشاذلي و الخلوتية نسبة إلى الشيخ محمد السيدي علي بن السنوسي الخطابي، وقد بين الدكتور عمار طالبي في المدخل إلى الحياة العقلية والنهضة الحديثة في الجزائر من كتابه الذي تناول فيه الفكر الباديسي، ازدهار الزوايا خلال القرن التاسع عشر بقوله: "لقد سيطرت الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، سيطرة مذهلة فبلغ عدد الزوايا 349 زاوية وعدد المردين أو الإخوان 295.000مريد، والفقهاء الذين عرفوا بمعارضتهم الصوفية أصبحوا بدورهم طريقتين أما الفكر الجزائري الأستاذ "مالك بن نبي" الذي كتب مقدمة كتار أثار ابن باديس يقول عن باديس: "أما ابن باديس فقد جاء في فترة جددت فيها النزعة الصوفية" "المرابطة أو التصوفية" "دورة المرابطين ويضيف: "لقد كان ابن باديس مناظرا مفحما ومربيا بناء ومؤمنا متحمسا وصوفيا والها..." هذه الشهادة من مفكر عارف بأمور الجزائر تدحض حجج المتقولين بأن ابن باديس كان يحارب التصوف، بل كان في حقيقة الأمر يحارب البدع الهدامة والخرافات المشينة النى نالت من قدسية الدين الإسلامي الحنيف، ومع شذوذ بعض الزوايا التي غرفت بدورها السلبي، الا أن الاغلبية الساحقة قأومت الاستعمار الفرنسي منذ بداية دخوله للأوطان مقاومة باسلة، كما كان لها دور فعال في تبسيط المجتمع وتوجيهه الوجهة اللائقة بالرغم من تكالب النزاعات المعرضة الهادفة إلى استمالتها والاستفادة من نفوذها وفي نفس الوقت التشكيك في استقامتها بل ورميها بتحريف الدين والتعاون مع الاستعمار للحفاظ على مركزها، الأمر الذي أدى على دول المدى إلى تشويه سمعتها وبالتالي تغيير نظرة العامة إليها.[2]

ومن أبرز هذه الزوايا والتي ينحدر منها الأمير عبد القادر الجزائري هي القادرية: هي من أقدم الطرق الدينية على الإطلاق وبدون منازع نسبة إلى الشيخ في فناء الذات واتحاد الروح بالخالق في تصوف إنشائي إلى درجة الهستيريا بواسطة طقوس تدرس مبادئ الإحسان في أسمى معاينة وذلك بدون تمييز جنسي أو عرقي أو مذهبي في محبة ملتهبة وهاجة وتواضع دائم، وحلاوة متناهية والطريقة القادرية تفرعت إلى مجموعة من الزوايا

[1] - بوداوية بلحية، التصوف في بلاد المغرب العربي، دار القدس العربي –الطبعة الأولى، ص 19 -20.
[2] - بوداية بلحيا: التصوف في بلاد المغرب العربي، ص 21 – 22.

من أبرزها زاوية الشيخ صحي الدين والد الأمير عبد القادر وزاوية بلحول والزاوية القادرية التحتانية والزاوية القادرية الفوقانية وزاوية شلاظة أما فروعها فهي أربعة:

1-العيساوية أو العيساوة: طريقة صوفية تمتد من جذورها إلى الشيخ سيدي محمد بن عيسى السفياني المختاري والتي انقسمت إلى ثلاثة فروع.

2-العمارية: تعود أصولها إلى الولي الصالح سيدي عمار بوسنة، وقد انتشرت هذه الزاوية وذاع صيتها في بلاد المغرب العربي.

3-الكنوتية: أنشئت خلال القرن السادس عشر ميلادي في قبيلة كنوتة ولاية أدرار وقد وأشرف على إنشائها الشيخ عمر بن سيدي أحمد البكاري وهو سليل الولي الصالح فاتح شمال إفريقيا سيدي عقبة بن نافع الفهري.

4-الفضيلة أو العينة: أنشأها الشيخ سيدي محمد الفاضل الشنقيطي من قبيلة "أهل طلاب مختار قلاقطة" الذي أصبح الوريث الروحي للشيخ البكاري.[1]

بعدما تحدثت عن زاوية القادرية وفروعها لابد أن أشير إلى أن الأمير عبد القادر ينتمي إلى هذه الطريقة، فهو يعد أحد أقطابها ووالده كان يرأس واحدة من أكبر زواياها، ففي هذه الزاوية نشأ الأمير عبد القادر المجاهد والمتصوف وفيها تربى وتعلم وأتقن القراءة والكتابة، ولما تجاوز الخامسة حفظ كتاب الله وجمله من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، بحيث نبغ مبكرا في مسجد الزاوية وتقلد مسؤولية التدريس وهو شاب، حيث جلس للتفسير في مسجد الزاوية كما عرف عنه أنه كان يجيد تخريج الآيات ويحسن تأويل المتشابه من القرآن.

-أما تصوف الأمير فقد بدأ عندما تلقن وتعلم وطالع مبادئ التصوف في المرحلة الأولى من مراحل حياته ولكنه لم يعاني التجربة الروحية الشخصية ولم يصل إلى الأفق الروحاني المشرق الذي يريد أن يحققه لنفسه عن طريق الذوق إلا في مراحل متقدمة من حياته وأول ما ينبغي علينا معرفته هو مفهوم التصوف في نظر الأمير.[2]

مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر:

يعتبر التصوف: "جهاد النفس في سبيل الله، أب لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، الاطمئنان لأحكام الربوبية لا لشيء آخر من غير سبيل الله.

ويوجه الأمير تحذيره إلى الصوفي: "يجاهد نفسه بالرياضيات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك، أو لصرف وجوه العامة إليه، أو حصول غني، أو نحو ذلك من الخطوط النفسية".

ويحذر الأمير مرة ثانية من الذين تكون عباداتهم "بأغراض نفسية وخطوط شهوانية". والصوفيون في نظر الأمير هم هؤلاء عليهم" أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم، حاضرين مع الله تعالى".[3]

---

[1] - المرجع نفسه، ص 39-38-37-26 "بتصرف".

[2] - مؤسسة الأمير عبد القادر، الحياة الروحية للأمير عبد القادر، ص 61.

[3] - الأمير عبد القادر: المواقف، ص 71 – 141.

كما أطلق الأمير على الصوفيين ألقابا عديدة فهم تارة "أهل الله" وطورا "العارفون" ومرة "أهل الكشف" والعرض، ويحاول الأمير من خلال تعريفه لأهل الله أن يصحح بعض المفاهيم الخاطئة التي كانت ترسخ في أذهان بعض الناس في عصره عن التصوف والمتصوفون فأهل الله الذين يعينهم الأمير بحديثه : ليسوا هؤلاء الذين يأكلون النار ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويدخلون التنور ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعرفهم العوام...

لأن ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعبذه ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم.[1]

وأخيرا يمكن القول أن التصوف عند الأمير عبد القادر هو ذلك الجهاز التنظيري التجريدي، الفلسفي والسلوكي، العلمي الذي يكون من دون شك الخليفة المعرفية التي أطرت سلوك هذا الرجل العظيم، والذي تمكن من الربط البنيوي والهيكلي بين مضامين التصوف وحركة الجهاد...فكون التصوف الجهاز المفاهيمي والسلوكي التطبيقي عند الأمير عبد القادر الجزائري، وكان إسلامه الصوفي الجهادي واحدا من المرتكزات والعناصر الأساسية لمنظومة ونسق القيم عند الأمير، فإذا كان التصوف عند البعض رؤية للعالم يؤسسها موقف "الرقص له نهج في السلوك يجسد عملية الرفض هذه" فان الأمير عبد القادر قد رفض الاستعمار لأنه حالة طارئة على صفاء الموطن البادية موضع النعيد والصيام والإنس والصلة، ويجسد هذا الرفض وسلوك الجهاد الذي قام على المبالغة والمشاركة الشعبية، وبهذا يكون الأمير قد نقل التصوف من ذلك الموقف الفرداني إلى موقف جماعي ومن موقف طبقي إلى موقف طبقي إلى موقف شعبي ومن الصفوة إلى الجماهير، ومن الذوق والكشف إلى الجهاد والاستشهاد الذي يحقق ربما في نظر المتصوفة من نموذج الأمير كمجددين في التصوف رمزا للاتحاد مع العالم العلوي والذات العلوية....الخ[2]

وكان الأمير مؤمنا أشد الإيمان أن في التصوف الإسلامي ما يزيد فيه على معنى أي تصوف آخر لأن الإسلام في جوهره شريعة دنيوية وأخروية ، فهو يأمر بالعمل والجهاد والتمتع بالحياة دون إسراف، ولا عدوان مصدقا لقوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾ سورة القصص الآية 77.

وبعدما تحدثت في هذا الفصل عن مفهوم التصوف بصفة عامة لغة واصطلاحا وتحدثت أيضا عن مفهوم التصوف الإسلامي.

وان مبناه على الكتاب والسنة، ثم انتقلت إلى التصوف في بلاد المغرب عامة في الجزائر بصفة خاصة فذكرت أشهر الزوايا ومن بينها القادرية والتي ينتمي إليها الأمير عبد القادر الجزائري.

مصادر التصوف:

[1] - فؤاد صالح السيد الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، مرجع سابق، ص 116.

[2] - مؤسسة الأمير عبد القادر: الحياة الروحية للأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 162 – 161.

1-المصدر الفارسي: هناك من المستشرقين من ذهب إلى أن التصوف مرده إلى أصل فارسي ومنهم رانهارت دوزي 1820 – 1830. مستشرق هولندي أشتهر بمعجمه "تكملة المعاجم العربية".[1]

فالتصوف أصله فارسي كونه كان موجودا قبل الإسلام كفكرة الصدور أو صدور كل شيء عن الله وقد قال أبو الوفاء التفتزاني بأن القول بفكرة الصدور ووحدة الوجود، فقد ظهر في وقت متأخر ومراحل متأخرة من القرن السادس والسابع الهجري.

2-المصدر المسيحي: ومن هؤلاء راينولد الين نيكلسون، المستشرق الانجليزي من أكبر الباحثين في التصوف الإسلامي من كتبه الصوفية في الإسلام وأهداف التصوف الإسلامي والصوفية وبحث تاريخي في نشأة التصوف وتطوره.[2] يرى نيكولسن أن التصوف الإسلامي مرده إلى المسيحية التي تتمثل في حياة المسيح والرهبان وطرقهم في العبادة والملبس.

3-المصدر الهندي: يميل بعض المستشرقين إلى رد التصوف إلى مصادر هندية، ونذكر على سبيل المثال المستشرق الألماني هرتمن {1851 – 1918 } الذي يرى أن الزهد الإسلامي في أساليبه هندي خاصة "السبح" وتشابه عقائد الهنود في وحدة الوجود والفناء وعقائد متفلسفة الصوفية.[3]

4- المصدر اليوناني: وأصحابه يمنون به التصوف الذي بدأ في القرن الثالث الهجري على يد "ذو النون المصري" والذي عليه التصوف الفلسفي.

5- مصدر إسلامي خالص: وهو ما ذهب إليه السالكون لطريق التصوف في إتباعهم لسيرة النبي ونهج صاحبته الكرام، فأخذوا من الكتاب والسنة وما اشتملا عليه من مكارم الأخلاق وتهذيب النفوس والزهد في الدنيا والطمع في الآخرة، نذكر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأوى ﴾. [4]

[1] - عبد الرحمان بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 01، 1993، ص 259.

[2] - المرجع السابق، ص 593.

[3] - عبد الرحمان بدوي، المرجع نفسه، ص 607.

[4] - سورة النازعات، الاية 40.

الفصل الثاني

1/مفهوم النزعة الإنسانية في الإسلام: وهي النسب الإداري الحقيقي الذي أراده الأمير أن يكون صلة الوصل بينه وبين أخيه الإنسان شرقيا كان أم غربيا أو أوروبيا مسلما أو مسيحيا، إذ أن أساس الديانة وأصولها خلافا فيها، بين الأنبياء من ادم إلى محمد عليه الصلاة والسلام، فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الله وتفضيله[1]

إن المتأمل في التسامح الديني الذي عرف به الأمير في بناء وجوده في الجزائر وخارجها منفيا، يدرك أن الرجل كان على مستوى من الوعي الإنساني المتفهم لحقيقة الإنسان والإنسانية التي لا تؤمن بالحدود والحواجز والعراقيل بين البشر وخير دليل على ذلك ندخله في أثناء الفتنة (1276ه – 1860م) المشئومة في دمشق، فقد شهد له التاريخ بهذا الموقف البطولي الخالد الذي كشف عن رجولته وإيمانه وعن طابع الإسلام والعروبة والواضح في شمائله، فقد استطاع أن يحقق عمليا أسلوب الأريحية العربية في النجدة والبذل والحماية الدماء وطابع الإيمان الإسلامي في التسامح والأخوة الإسلامية، في قصائده الصوفية التي أكدها في بعضها على وحدة فهو تارة هذا المسلم الزاهد، طوراً هذا الراهب الذي يسرع إلى الكنائس، وقد أحكم شد الزنار إلى وسطه ومرة يلتحق بمدارس اليهود لتدريس الثورات.

2/ الأسباب التي دفعت الأمير عبد القادر على إتباع طريق التصوف:

إن الأسباب النبي دفعت الأمير عبد القادر على إتباع طريق التصوف كثيرة ومتنوعة نذكر منها ما يلي:

أ- **انتماؤه إلى آل بيت النبي:** وهو النسب العفوي الطبيعي الذي لا إرادة الأمير عبد القادر به وقد تمسك مؤرخوه بهذا النسب الجسدي فأطنبوا وأفاضوا في ذكر نسبه النبوي الشريف، فهو تارة عندهم الحسني وطور الحسيني ومما لاشك فيه أن الأمير عبد القادر قد افتخر بهذا النسب النبوي الشريف وظهر فخره في هذا في العديد من القصائد الفخرية والحماسية تضمها في المرحلتين الأولى والثانية من حياته.

كما أن الأمير يرى: "ان كل من كان من أهل البيت الإلهي هو من أهل البيت النبوي...ولا ينعكس".[2]

*وهذا يعني أن الخير كل الخير في أن يجمع الإنسان بين البيتين: "النبوي والإلهي"، إذ من كان من أهل البيت النبوي والإلهي فكرامة على كرامة، ونور على نور ومن كان من أهل البيت النبوي فقط، فهو دون من كان من أهل البيت الإلهي.

ولهذا فان الأمير يخلص إلى نتيجة هي: "اعتبار الشارع النبي صلى الله عليه وسلم للقرابة القلبية الباطنة، أكد من اعتبار القرابة الجسمية الظاهرة"، فالأمير جاهد في سبيل الوصول إلى هذا النسب الإرادي الحقيقي، ليصبح من أهل البيت الإلهي.

---

[1] - ذكرى العاقل وتنبيه الغافل: توت د: ممدوح حقي منشورات دار اليقظة العربية، بيروت، 1966م، ص 101.

[2]- فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر العاصمة الثقافة العربية، 2007م، ص 118.

ج/ تربيته الدينية الصوفية: أن إيمان الأمير بالقضاء والقدر شديد جدا، ولعله يتابع في هذا الرسول صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإسلام فقال..."أن تؤمن بالأقدار كلها خيرها ونشرها حلوها ومرها". وتلمس إيمانه هذا في هذا الكتاب العهد الذي أعطاها الأمير لويس نابليون {louis napoléon} والذي تعهد فيه بعدم العودة إلى ارض الجزائر، كما يعبر الأمير في رسالته التي أرسلها لصديقه الأسقف "دوبوش"، عن مغيبات القدر، عن الدور الذي رسم له منذ ميلاده قائلا: "لعلك اكتشفت من خلال حديثنا أنني لم أولد لأكون محاربا، ويبدو لي أنه كان يجب على أن لا يكون محاربا ولو يوما واحدا، ومع ذلك فقد حملت السلاح....ما أكثر غموض مغيبات القدر، ولم يكن سوى محض الصدفة أن وجدت نفسي بعيدا تماما عن الدور الذي حدده لي ميلادي وتربيتي وميولي، وهو الدور الذي كما تعلم جيدا طالما تشوقت لاستئنافه والذي لم أزل أصلي إلى الله تعالى أن يسمح لي بالعودة إليه الآن وأنا في خاتمة حياتي الشاقة".[1]

فمن الواضح جدا أن رسالة الأمير هذه تكشف عن سر خطير من أسراره ألا وهو اعتقاده أنه حمل السلاح مكرها، فهو لم يولد ليكون محاربا ولم تكن فكرة الإنسان المحارب تخطر على باله مطلقا ومع ذلك فقد حمل السلاح، ولذا فان الأمير قد اعتبر أن مرحلة الجهاد الحربي من حياته، أبعدته كليا عن الدور الذي حدده له ميلاده وتربيته وميوله، حيث كشف الأمير عن حقيقة هذا الدور اثر عودته من الحجاز، بعد خلوته الصوفية الشهيرة، فقال: "لقد خط لي بالميلاد والتربية والميل أنه دور طالما أشر أبت نفسي لاستئنافه وطالما صليت إلى الله أن يسمح لي بالعودة إليه الآن، وقد قاربت سنوات عمري الشاقة نهايتها."[2]

إذا لم يعد هناك من شك في أن هذا الدور، الذي يؤمن به الأمير إيمانا كليا، والذي حققه في خلوته الصوفية هو إيمانه بأن القضاء والقدر وقد كتب له ليكون صوفيا بالميلاد والتربية والميل.

د/محاربته التقليد والمقلدين:

يعتقد الأمير إن الإنسان قد يكون "محجوبا باعتقاد سبق إلى القلب وقد الصبا عن طريق التقليد والقبول وبحسن الظن، فان ذلك يحول بين القلب والوصول إلى الحقائق، ويمنع أن ينكشف، في القلب غير ما تلقاه بالتقليد، وهذا حجاب عظيم حجب

أكثر الحلق عن الوصول إلى الحق، لأهم محجوبون باعتقادات تقليدية رسخت في نفوسهم وجمدت إلى قلوبهم". ومادام الأخير قد عرف هذا الحجاب التقليدي فانه يقول غير مقلد ولا مقيد، وإنما يقول ما افهمه الله تعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لذا فانه يقول: "إذا كان تقليد الرجال مدفوعا غير مرضي في الاعتقادات، فتقليد الكتب أولى وأحرى بالذم" ومن هنا وكانت إرادته الإلهية ومواقفه الصوفية ووقائعه "نفثات روحية،

[1] -فؤاد صالح السيد الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، 122-121.
[2] - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص 122.

والقاءات سبوحية بعلوم وهيبة وأسرار عبثية من وراء طور العقول وظواهر النقول خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر في كتاب"[1] .

*هذا هو الإيمان الحقيقي الذوقي الذي يرفض الإيمان العقلي الوارد عن طريق الجدل والمناظرة والمناطق، كما انه يرفض الإيمان التقليدي الوارد عن طريق التكفين والتعليم والاكتساب فإيمانه كما يبدو هو الإيمان القائم على التجربة الروحية الذوقية الشخصية بحيث يوجه الأمير كلامه للمقلد قائلا: "إذا كنت مقلدا فليس كلامي معك" إذ انه لمعرفة طريق الحق، على الناظر أن ينظر بعين الإنصاف ويرمي التقليد أو التعصب والاعتساف"[2]

*أما التجديد الذي عرفه الصوفيون هو تجديد الفهم الديني وتجديد الوعي والإصلاح التجديد القائم على العودة إلى جوهر الدين أصوله وقواعده، لا إلى ظواهره وقشوره ورسومه ومن هذه المبادئ كلها تلاقت وجهات النظر بين الأمير في دمه التقليد ورفضه المقلدين، وبين الصوفيين في فهمهم الجديد للدين التليد.

ه/ تركه الحياة السياسية والعسكرية بعد استسلامه:

إن مرحلة الجهاد عند الأمير عبد القادر تأتي في المرتبة الثانية في حياته، بحيث استنفذت الشيء الكثير من تفكيره، فانحصر تفكيره في الأمور السياسية والعسكرية، لا يتخطاها إلا في القليل النادر، ولكن دخوله في معترك الحياة السياسية والعسكرية، كان مفيدا جدا فقد أوجد له بديلا من فقدان نشاطه الأدبي والعلمي وفتوته ومرابطته وهما حركتان من اشد الحركات ارتباطا بالتصوف، وبانتهاء هذه المرحلة السياسية والعسكرية تبدأ مرحلة جديدة، وهي مرحلة التصوف والعبادة، والتجرد عن متاع الدنيا الفانية.

وبالإضافة إلى هذه الأسباب هناك سبب آخر كان له دور كبير في التصوف الأمير وعزلته في أسره "بامبوار" في فرنسا، بحيث تعد هذه المرحلة من أهم المراحل التاريخية لتصوف الأمير، إذ كان يشغل نفسه في هذه العزلة "بالدعاء والتضرع وكشف الرأس حيث ترد عليه الواردان في الوقائع مشيرة وآمرة بالصبر".[3]

وهكذا يمكن القول بان الأسباب التي دفعت الأمير إلى سلوك طريق التصوف كانت متعددة ومتنوعة بتنوع الأحداث والوقائع التي جرت في حياة الأمير في مختلف مراحلها.

3-المراحل التاريخية لتصوف الأمير عبد القادر:

مر تصوف الأمير بمراحل تاريخية توازي في نموها وتصاعدها المراحل التاريخية لسيرة حياته الذاتية، وان هذه المراحل قد نمت عنده نموا طبيعيا، وتدرجت تدرجا سليما في تصاعدها من نقطة البداية بداية التوبة والورع إلى النقطة النهاية نهاية النفس الإمارة بالسوء، حيث الشاهد واليقين ويبدو أن الغاية من هذا التقسيم التاريخي لتصوف الأمير هو بيان الظروف التاريخية والاجتماعية والنفسية التي عملت في تكوين مرحلة من مراحل

[1] - الأمير عبد القادر: المواقف: مج1: المقدمة: ط1، 2005م، ص 09.
[2] - المصدر نفسه، مج 01، الموقف 173، ص 348.
[3] - المصدر نفسه، مج 01، ص 472.

تصوفه التاريخية وتطويرها، وهذه المراحل بدورها أرضا وقاعدة لما فوقها من المراحل، وكلما ارتقى مرحلة من هذه المراحل إثارة المرحلة التالية، جرأته وأغرته بارتقائها ومعرفتها لتمنحه مزيدا من المعرفة الصوفية وهذه المراحل التاريخية كالتالي:[1]

المرحلة الأولى: مرحلة التلقين والتعلم والمطالعة {1946-1222 / 1830-1807}:

تمتد هذه الفترة أو المرحلة من ولادة الأمير في القبطنة إلى التاريخ نزول الفرنسيين ارض الجزائر واهم فترة زمنية في هذه المرحلة هي فترة الرحلة المشرقية التي سافر فيها مع والده لأداء فريضة الحج، فأتاحت له فرصة الاطلاع على الطرق الصوفية ومنها:

أ-الطريقة النقشبندية: أخذها في مدينة دمشق عن الإمام أبي البهاء، ضياء الدين الشيخ خالد النقشبندي السهروردي المولود بقرية صغيرة بالقرب من بخاري سنة {718ه-1318م} وتوفي سنة {791ه-1389م} بحيث كان الأمير كثيرا ما يتردد إليه ليسمع منه علوما شتى في التوحيد والتصوف.[2]

ب-الطريقة القادرية: أخذها في مدينة بغداد من يد نقيب الإشراف شيخ السجادة القادرية السيد محمود الكيلاني القادري، وبعد عودتهما من رحلتهما المشرقية إلى ارض الوطن تولى السيد محي الدين وابنه الأمير عبد القادر نشر الطريقة القادرية حيث يومئ الأمير إلى هذه المرحلة التاريخية من مراحل تصوفه في الموقف الثالث عشر من مواقفه حيث كان مغرما بمطالعة كتب القوم رضي الله عنهم منذ الصبا غير سالك طريقهم.[3]

المرحلة الثانية: مرحلة الفتوة والمرابطة {1264-1246ه / 1830-1848ه}:

ظهرت فتوة الأمير عبد القادر ومرابطنة عندما اعتدت فرنسا على بلاده، وأرادت استعمارها فهو لم يحارب فرنسا ولم يحارب الفرنسيين بل حارب من حمل السلاح منهم فقط فجاء الجزائر مقاتلا ومستعمرا، بحيث أن الروح الفتوة والمرابطة والجهاد مرتبطة بمقاومة العدوان وتحرير البلاد دون الجنوح لقتال امرئ إلا من كان بيده السلاح ويرتفع عند استعمال العذر، أو نقص العهود وهي الميزة الأساسية التي كانت يتمتع بها الأمير طوال المرحلة الثانية من مراحل حياته الصوفية أضف إلى ذلك أن "مكاتبات الأمير للشخصيات الفرنسية البارزة كالحكام والوزراء والقادة ومعاملته لأسراهم من القواد وكبار الضباط، وحتى الجنود العاديين ما يشعر عن روح النبالة التي تعترف باسم الفتوة وهي التي عرفت في العرب باسم الفروسية".[4]

*وبما أن الإسلام جعل العبادة وعمل المعروف والدعوة إلى الخير ودفع المظالم والتكسب من الحلال والكدح في الأرض عبادة.

*هكذا كان الأمير عبد القادر عمليا في تصوفه، ....الصحيح إلى ذروة الفتوة والمرابطة بمعناها الإنساني النبيل، خلافا لما صار إليه معظم الصوفيين.

---

[1] - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري، ص 125.

[2] - المرجع نفسه، ص 127.

[3] - الأمير عبد القادر، المواقف، مج01، الموقف 13، ص 46.

[4] - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص 129.

المرحلة الثالثة: مرحلة التأمل والتفكير {1269-1264ه / 1848-1852م}:

انتهى أمر الأمير إلى الأفق الروحاني المشرق، منذ كان أسيرا في السجن، فضاقت عليه الأرجاء، ولكن ظلا متمسكا بوقدة الصبر تارة و وقدة الشوق للخلاص من الأسر تارة أخرى، وقد أشار الأمير إلى هذه المرحلة التي سماها "خلوة" في الموقف الحادي عشر بعد المائتين من كتابه المشهور "بالموافق"، حيث صور حالته النفسية التعيسة وما كان يقاسيه من الأزمات والضيق وقد اعتبر كل هذا ابتلاء واختبار من الله تعالى، ليعرف مدى صبره ورضائه بقدر الله تعالى.[1]

وهكذا يبدو أن هذه الخلوة قد أتاحت للأمير لأول مرة في حيلته التأمل الصوفي الروحاني الهادئ العميق، فكان يقضي أوقاته بالذكر والدعاء "وكانت ترد عليه الواردات في الوقائع مشيرة وأمره بالصبر". لذا انشغل في أثناء خلوته هذه بالدعاء والتضرع وكشف الرأس".

وتعتبر هذه المرحلة الأساسية، لأنها بمثابة حلقة وصل ما بين المرحلتين السابقتين وما بين المرحلة الرابعة والأخيرة التي سيصل فيها إلى ذروة التصوف، وهي إلى جانب ذلك تمتاز بالإنتاج الأدبي والفكري، حيث تعرف الأمير خلال هذه المرحلة إلى الصوفي الكبير السيد محمد الشاذلي القسنطيني.[2]

المرحلة الرابعة: مرحلة النضج والتغيير {1300-1268ه / 1853-1883م}:

تعتبر هذه المرحلة من أعنى مراحل التصوف للأمير عبد القادر من الناحية النتاج الأدبي والفكري ففي هذه المرحلة تم له الفتح العظيم، وكان ذلك في خلوته الصوفية الشهيرة إذ أقام في مكة سنة ونصف، مقبلا على العبادة والخلوة والتقى فيها بالشيخ الجليل العارف بالله محمد الفاسي، رئيس الطريقة الشادلية فتتلمذ على يديه وشرب عنه الطريقة ولازم الرياضة، والاجتهاد وعكف على ما في تلك الطريقة من أذكار وأوراد إلى أن ارتقى في معارج الأسرار الإلهية.

وما تم له للارتقاء إلا في غار حراء، لأنه انقطع فيه أياما عديدة إلى أن جاءته البشرى ووضع له الفتح النوراني وانفتح له باب الواردات واستظهر من القرآن الكريم الآيات ومن الحديث النبوي الشريف أحاديث صحيحة.[3]

وقد أشار الأمير إلى الفتح الرباني في الموقف الأول من مواقفه حين قال" :إن الله تعالى قد عودني أنه مهما أراد أن يأمرني أو ينهاني أو يبشرني أو يحذرني أو يعلمني علما أو يفتيني في أمر استفتيه فيه، إلا ويأخذني مني مع بقاء الرسم ثم يلقي إلى ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثم يردني إلى ، فأرج بالآية قرير العين قد تلقيت والمنة لله تعالى نحو النصف من القرآن بهذا الطريق."[4]

---

[1] - الشاعر الأمير عبد القادر: جمع وتحقيق وشرح الدكتور العربي دحو، دار تالة، 2007، 2007م، ط3، ص 96.

[2] - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص 133.

[3] - محمد عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي، ط2، منشورات دار اليقظة العربية، بيروت، 1384ه-1964م، ص 695.

[4] - المواقف: مج01، الموقف الأول، ص 26.

*وأخيرا يمكن القول أن كل هذه المراحل التاريخية لتصوف الأمير، قد تدرجت تدرجا تصاعديا في سماء المعرفة الإلهية وبدأت في مرحلتها الأولى تلقينا وتعليما ومطالعة، ليس فيها من أثر للتجربة الروحية الشخصية، ثم تلتها المرحلة الثانية التي كانت فيها الفتوة والمرابطة أساس تصوفه العملي وكانت المرحلة الثالثة عبارة عن نقطة اتصال بين المرحلتين السابقتين، أما المرحلة الرابعة والأخيرة وصل فيها الأمير إلى درجة النضج الصوفي والفكري فعبر عن رحلته الصوفية فكانت هذه التعبيرات الصوفية خاتمة المطاف الأمير عبد القادر الصوفي.

4-الأبعاد الحضارية عند الأمير عبد القادر:

يحمل التصوف عند الأمير عبد القادر أبعاداً مختلفة، فهو لا يقوم على ثنائية الشيخ والمريد فحسب، بقدر ما يقوم على التأسيس لفلسفة في الحضارة، وحقوق الإنسان التي تقوم على الجمع بين الحكمة والممارسة، وتتجلى في نقاط مختلفة منها:

أ-الدعوة للإنسان الكامل والأنسنة: يعود الأمير عبد القادر إلى فكرة الإنسان الكامل عند ابن العربي هذا الأخير يجسدها في قوله: "اقتضى الأمر جلاء مرآة العالم بعدما كانت صورة مظلوم، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة".[1]

وذلك أن لان الإنسان الكامل هو الذي تجاوز مرحلة الإنسان الواقعي، وهو الحقيقة المحمدية التي تتراء لعين العارف في كل شيء من حيث كونها الحدث الذي تجسدت فيه وبه المشيئة مطلقا".

فالإنسان الكامل هو الذي حقق مرتبة الخلافة في العارض وحقق درجة الصورة التي يرى فيها الله ذاته وبلغ مرتبة الولاية التي تشبه درجة النبوة وتجعل الصوفي يتلقى المعرفة اللذية بعد الاتحاد بالخالق، جسدها الأمير في اقتفائه لطريق الشيخ الأكبر قولا وفعلا، وفي قراءته للنص القرآني على وجه الخصوص.

كما يؤسس الأمير للانسنة القائمة على النزعة الإنسانية، واحترام الإنسان الكوني بعيدا عن الهيمنة المعتقد أو العادات والتقاليد والانتماء والهوية، وبموجبها ينبذ التطرف ويدعو للتسامح وهذا ما يجسد في شخصية الأمير عبد القادر الجزائري، حيث أكد -ادريس الجزائري- الممثل الدائم للجزائر لدى الأمم المتحدة سابقا، أن الأمير كان منشدا لفهم الحقيقة الإسلام كدين ينبذ التطرف الملحق به بهتانا وزوراً ذلك لأنه لم يستنبط من الإسلام الحقيقي "التشدد ولا نموذج العنف الذي يريد إلصاقه بالمسلمين كوسيلة شعبوية للتخفيف في الدول المتقدمة، أنما أسئلتهم من مبدأ الإسلام الحقيقي المحبة والإخوة والإنسانية لشق الطريق

[1] - عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكر، مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة والفقه والخطاب القرآني، دار الفكر العربي مع أطفالنا للنشر والتوزيع، ط 1، 2011م، ص 128.

لتأسيس قانون دولي إنساني جامع قانون دولي إنساني جامع وفعال...ذلك أن فكر وأعمال الأمير يشكلان دواء للحد من تصاعد اللاتسامح، تلك الظاهرة المشئومة لهذه الهويات القاتلة.[1]

فقد تأثر الأمير لما يسبب للإسلام من ظواهر التطرف والقسوة والعنف وتجاوز ظواهر الأخوة والإنسانية التي هي من صميمه من مبادئه الكبرى.

ب-الدعوة إلى التفتح على الأديان والحوار فيما بينها:

يشهد هنري تشرشل في كتاب حياة الأمير عبد القادر على دور الأمير عبد القادر في التفتح على الديانات، بالإشارة إلى قيامه بزيارة للكنائس وتعرفه على المسيحية والمسحيين في أوروبا قائلا: "عندما دخل كنيسة المادلين، قال للقسيس الذي كان مرافقا له: حينما بدأت مقاومتي للفرنسيين كنت أظن لأنهم شعب لا دين له، وعندما كان يزور كنيسة نوتردام توقف ليفحص عجائب الفن والآثار التي تحتوي عليها باهتمام أثار دهشة الحاضرين لأنه صادر عن مسلم، فتماثيلها وصورها الملونة والعبادة التي كان قد توشح بها نابليون الأول عند تتويجه وقطعة الصليب الحقيق الذي أهداه بالدوين balduin إلى لويس الثاني عشر، كلها على التوالي جذبت انتباهه".[2]

هنا يتضح موقف خاص للأمير عبد القادر في التعامل مع المسيحية يبدأ من قبوله الدخول إلى الكنائس ويمر باحترامه للديانة المسيحية واعترافه بأنها دين متميز عن من يدينون به، ويرتبط كذلك بتردده على أحد الكنائس متفحصا أثارها وعجائبها حتى من الصليب الذي أثار اهتمامه على الرغم من انه محل استهجان من بعض المسلمين، ولا شك أن هذا يعكس قيم التسامح والتفتح على الأديان الموجودة في الإسلام، والذي ما فتئ ينكره المتعصبون والمتطرفون...قراءة التصوف مهمة جدا ولاسيما لأفكار ابن عربي فهي الأرضية النظرية للشخصية السمحة عند الأمير بعد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم طبعا...وكل هذا بطبيعة الحال هو ما يحتاج إليه مفكرو الإسلام في مواجهة التطرف الديني داخل العالم الإسلامي والاسلاموفوبيا خارجه.

*كما أشار أن الحوار بين الديانات الذي ما انفك يبجله ويشيد به هو حسب رأيه كثير المنفعة خاصة وان الأنبياء، أي دياناتهم تتفق على قيم تكتسي صبغة عالمية ويشير إلى أربعة قيم أساسية حفظ الشخص، وحفظ النفس، وحفظ الأسرة، وحفظ المال، ويؤكد بأن الديانات تلقت نفس التعاليم، وأن مبتغاها المشترك هو تعظيم لله والشفقة حيال مخلوقاته فالاختلاف بين

[1] - الأمير عبد الحسني الجزائري: المواقف، موقف 04، تج، عبد الباقي مفتاح، مؤسسة الأمير عبد القادر، ط01، 2005م، ص 13.

[2] - تشارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، دار الرائد مع عالم المعرفة الجزائر، طبعة خاصة، 2009، ص 343.

الأنبياء...حسب الأمير ، يكمن في طريقة المحافظة على هذه القيم العالمية والتدابير المنصوص عليها لضمان ديمومتها.[1]

فالحوار بين الديانات هو ما أشاد به الأمير مبينا أن الأديان على اختلاف أنواعها تتفق فيها، انطلاقا من اشتراكها في قيم كونية كحفظ الشخص وحفظ النفس وحفظ المال والأسرة، كما تعرف في تراثنا بمقاصد الشريعة التي جعلها الأمير منطلقا لفهم المسائل الانسنة والحوار الأديان....حسب تصورات لا تختلق المفاهيم الملحقة في الفترة اللاحقة له، وهي ما تجعلنا ندرك أن تصوفه يحمل أبعادا متنوعة جوهرها الحوار بين الديانات التي هي مطلب حاسم اليوم، ولاسيما في ظل حرب الهويات كما يسميها هنتنغتون s. Huntington وأتباعه، وفي ظل الإرهاب المنسوب للإسلام، كما ظهر مؤخرا في أحداث شارلي بفرنسا التي شوهت صورة الإسلام رغم براءته منه، تلك التي تحتاج من يدافع عنها بالحجة والبرهان وليس بالتنديد فقط، ولعل الحجة هنا تجد نفسها في تصوف الأمير عبد القادر الذي عكس الإسلام المتسامح والفعال في بناء الحضارة وهو ما وجب ان يستلهم اليوم لمواجهة التحديات المختلفة.

ج-التأسيس لمواثيق ومعاهدات تكرس للحضارة الراقية والمستقرة:

أرسى الأمير مواثيق مؤسسة للمدينة والحضارة، تضمنت بنود مختلفة حول حقوق الإنسان في معاملات شتى، منها "القانون الذي رسمه لجيشه وأنصاره من الشرفاء والأجواء، والذي نذكر منه ما يلي:

1) أي فرنسي يتم أسره في المعارك يجب أن يعتبر أسير حرب، وان يعامل كذلك إلى أن تتاح فرصة تبادله مقابل أسير جزائري.
2) تحريم قتل الأسير والمجرد من السلاح.
3) معاملة الأسير معاملة حسنة وفي حالة شكوى الأمير تسقط المكافأة عن أسره ويتعرض لعقوبات.
4) كل من يقدم أسيرا فرنسيا يحصل على مكافأة قدرها {58 يورو}.
5) مداواة الأسرى وإطعامهم من طعام الجيش.[2]

*من خلال هذه البنود السالف ذكرها ندرك أن الأمير كان سباقا في التأسيس لميثاق الأسرى ومواد مختلفة حول حقوق الإنسان وإعادة ترتيبهم وتنشئتهم ليكون مواطنين صالحين مساهمين في بناء الحضارة وليس محزبين لها.

د-الدعوة للمحكمة والتحلي بها:

[1] - الأمير عبد الحسني الجزائري، المواقف، موقف 04، تج، عبد الباقي مفتاح، مؤسسة الأمير عبد القادر، ط 01، 2005م، ص 23.

[2] - بوعرفة عبد القادر وآخرون: تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، دار القدس العربي، ط 01، 2010م، ص 144.

على غرار الفيلسوف أبي حامد الغزالي في رسالته "رسالة أيها الولد" يشيد الأمير بالمحكمة في مواضيع مختلفة، إذ يذكر بأقوال الحكماء، داعيا إلى تدبرها، والتحلي بها في الوقت ذاته، زهي ما تجعلنا ندرك أن تجربته الصوفية، مرتبطة بأقوال الحكماء ومؤسسة في الوقت لنفسه لمجتمع ضالته الحكمة، ولاسيما تلك التي نؤكد أهمية المشورة والرأي في بناء الحضارة والمجتمع المتماسك، ورد في مذكراته: أربعة يرتقي بأربعة، العقل في الرياسة والرأي في السياسة والعلم آلة التصدير، والحكام إلى التوقير.

والرأي الحكيم في سياسته، وقيمة العلم الذي يكتسي غاية قصوى في بناء الاستقرار والازدهار، إضافة إلى الحلم وحسن التدبير، وغير ذلك من الحكم الذي عكس بها الأمير تصوفه قولا وفعلا، وفي مجال بناء الحضارة الراقية يضيف الأمير ان السلطان لا بد له من وزير حسن، ومستشار نصوح وصاحب بريد صادق[1].

ه-التأسيس لقراءة متفتحة وهادفة للنص :

من خلال كتاب المواقف للأمير عبد القادر، ندرك خبايا تأويل إشارة للقران الكريم والسنة وأقوال الصحابة من شأننا اليوم الرجوع إليه لمواجهة مظاهر التعصب والأنانية وهيمنة المادة، لان هدفه التهذيب والأخلاق قبل كل شيء، كما يظهر بوضوح في قراءته للنص حول الجهاد الأكبر والأصغر، الحديث القائل: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يريد صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأصغر جهاد الكفاء الأبيض والأسمر وبالجهاد الأكبر جهاد النفس بالتزكية والتخلية والتحلية...[2]

هنا يقدم الأمير عبد القادر تأويلا خاصا للحديث يتماشى واتجاهه الصوفي ولكن يبدي دهشة على طريقة الفيلسوف من تسمية الرسول صلى الله عليه وسلم جهاد الكفار بالجهاد الأصغر على الرغم من التضحية بالنفس والنفيس من اجله، على خلاف تسمية جهاد النفس بالجهاد الأكبر، رغم أن الغالب فيه تفويت عدم تبديل الحياة الحاضرة بالموت، وإنما فيها تفويت راحة وشهوات وتهذيب وأخلاق، وتبديل أحوال ذميمة بأحوال جميلة وأما أن يكون ذلك لكون جهاد العدو الكافر لا يكون خالصا مخلصا من الشوائب المفسدة والحظوظ المبعدة إلا بجهاد النفس وتهذيبها وتركيبتها، وإلا فلا يخلص جهاد المجاهد بل ولا عمل من الأعمال الصالحة مادامت النفس ملطخة بالخبائث، فجهاد النفس أكبر، لكونه شرطا في صحة جهاد العدو الأكبر، والشرط مقدم، فهو اكبر من المشروط لان قبوله وصحته بوجوده مربوط.[3]

[1] - الأمير عبد القادر الحسني الجزائري: مذكرات الأمير عبد القادر، ص 198.
[2] - الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، المواقف، الموقف 04، ص 73.
[3] - الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، المواقف، الموقف 04، ص 73.

عندما تعود إلى هذا النص نلاحظ وضوح النزعة الصوفية للأمير عبد القادر، تتجلى في تأكيده على الأخلاق بالتخلي على الرذائل والتحلي بالفضائل من اجل الإخلاص في العمل، مبدئيا ان الجهاد لا يحصل فيه الإخلاص ولا غيره من الأعمال التي يطبعها الشرع منا إلا بتزكية النفس وتطهيرها من الخبائث، وهذا ما يجعلنا نكتشف هنا أهمية الإخلاص في العمل كأساس للنجاح فيه سواء أكانت دنيوية وأخروية، وهنا بالإمكان الاستنتاج أي أن جهاد للعدو والمستمر والظالم لا بد له ان يحدث في الفرد قبل حدوثه في المجتمع، وهذا شرط لنجاحه.

هذه بعض الأبعاد التي تعتبر غيض من فيض، لان تصوف الأمير لا يختصر في هذه الكلمات، وهو رؤية معرفية وطريقة سلوكية، بإمكانها فهم الإنسان المؤسس للحضارة، ككائن ذو أبعاد: ماضي وحاضر ومستقبل، وعن علاقتها بالراهن الذي يكتسي أهمية قصوى، ما أحوجيا لاستثمار أفكاره ومواقفه في عمل العولمة، "إن استثمار الأمير عبد القادر في البرامج التربوية كفيل بميلاد جيل شبيه بالأمير عبد القادر في سلوكه وفكره، وحبه للوطن واعترافه بالآخر لقد غيب الأمير كتراث فكري وإنساني وعنصر كإيديولوجية فقط،... الأمير ليس مسيرة جهاد فحسب بل مسيرة إنسان عرف أن الله لم يصطف لنفسه جنسا ولا عرقا بل جعل الناس كلهم كعملة واحدة".[1]

[1] - بوعرفة عيد الأمير الحسني الجزائري، المواقف، ص 151.

الفصل الثالث

الصفات والحوار حول الأمير عبد القادر ومجاهداته

1-التسامح الديني عند الأمير عبد القادر:

إن المتأمل في التسامح الذي عرف به الأمير في أثناء وجوده في الجزائر وخارجها في المنفى، يدرك أن المجاهد كان على المستوى من الوعي الإنساني، المتفهم لحقيقة الإنسان والإنسانية التي لا تؤمن بالحدود والحواجز والاختلاف بين البشر، ويتجلى واضحا من خلال مؤلفات الأمير أنه أراد أن يكون صلة الوصل بين الإنسان الشرقي والإنسان الأوروبي، أي بين المسلم والمسيحي، اذ أن "أساس الديانة، وأصولها، خلاف فيها، بين الأنبياء، من آدم إلى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الإله وتعظيمه".[1]

فكثير ما كان يوجه الأسئلة إلى أصحاب مجالس العلماء وكبار الفقهاء في المغرب والمشرق وفرنسا، وكان يجيب بنفسه عن القضايا التي ترد عليه من كبار علماء الإسلام ومفكري الغرب، مسهبا في الإجابة وحريصا على عدم ترك أي استفسار بدون توضيح.

إن تفتح الأمير على الديانات الأخرى لم يكن يعني أبدا التخلي عن الإسلام أو الدعوة إلى التوحيد الأديان، وإنما كان ذلك إدراكا لخصوصية معتقدات ذلك "الأخر" فخلال زيارة أداها إلى كنيسة المدلين بباريس بعد إطلاق سراحه من الأسر، اعترف الأمير أنه "حينما بدأت مقاومتي للفرنسيين كنت أظن أنهم شعب لا دين له، ولكن تبينت غلطتي، وعلى أي حال فان الكنائس ستقنعني بخطئي".[2]

كما أن تدخله في أثناء فتنة 1276 ه/ 1860 م، في دمشق كشف لـ "الأخر" عن طابع الإسلام في التسامح والأخوة الإنسانية الواضح في الشمائل التي اتسم بها الأمير.

*هذان المثالان يعبران بصدق عن النزعة الإنسانية التي كان يعيرها الأمير عبد القادر صلته بـ "الآخر" أخيه الإنسان، وقد قال في هذا الصدد "لو أصغى إلى المسلمون والنصارى، لرفعت الخلاف بينهم ولصاروا إخوانا، ظاهرا وباطنا، ولكن لا يصغون إلي".[3]

وفي حديثه عن العقائد في رسالة ذكرى العاقل، يبادر الأمير عبد القادر إلى التأكيد أن التأكيد أن العقائد الإلهية لا تتنافى في جوهرها ومقاصدها ولا يقصي بعضها بعضا، وإنما هي تتناسخ رغم أن بعضها مثل اليهودية لا يقول بذلك ومعنى التناسخ كما يراه الأمير، هو التكييف والتعديل، "فالنسخ ليس ايطالا {...} وإنما هو التكميل.[4]

*وكان الأمير عبد القادر يعتقد بضرورة حماية الحرية العقيدة، هذه الحرية التي هي أهم أسس الإسلام كما هو واضح في الكثير من آيات القرآن لقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف الآية 29.[5]

---

[1] - مذكرات الأمير عبد القادر: تحقيق، د: محمد الصغير نبائي وآخرون، ط 03، الجزائر، دار الأمة، 1988م، ص 101.

[2] - شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، تونس، الدار التونسية للنشر، 1974م، ص 219.

[3] - A NTOINE ADOLPHE DUPUCH. ABDELKADER AU CHATEAU D'AMBOISE BORDEAUX 1849. 125.

[4] - مجلة المسالك: عدد 02 جوان / جويلية، 1998م، ص 21.

[5] - سورة الكهف: الآية 29.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ 118إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ 119﴾ سورة هود الآية 118 -119.[1] وقوله: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ سورة البقرة الآية 256.[2]

ويقول الأمير في إحدى رسائله: "إن تطبيق التسامح يتمثل في عدم إكراه أي مؤمن بدين على ترك دينه، وكل الشرائع الإلهية، سواء الإسلام وغيره، متفقة في هذه المسألة".[3]

2-الأمير عبد القادر والحوار مع الآخر:

اعتمد الأمير عبد القادر وسيلة الكتابة وأسلوب المخاطبة غي محاورة "الآخر"، وقد ذكر إن الإنسان يحتاج إلى "أن تكون له قدرة على أن يعرف الآخر الذي هو شريكة، ما في نفسه بعلامة وضعية، وهي إما إشارة وإما لفظ وإما كتابة".[4]

ففي تدوينه لسيرته الذاتية[5] تطرق الأمير عبد القادر إلى عدة موضوعات شملت الأسباب والعقيدة الإسلامية وموقفها من النصرانية وتروم وبعض تاريخ الأمة العربية.

وقد اجتنب فيها أسلوب المفاخرة بينما أبرز فيها مظاهر التقارب والمودة بين الإسلام والمسيحية، مما يدل على ذهنية تفتح ثقافي واجتهاد في سبيل التفاهم بين الأديان والمعتقدات عند فئة من الفقهاء المسلمين لم يعرفوا ثقافة غير الثقافة الإسلامية البكر التي لم تلقح بعلوم دخيلة إلا ما أدمجته الشريعة من منطق التوحيد، أو حساب في الفرائض، أو معلومات عن عقائد غير المسلمين من خلال كتب الملل التابعة لعلم الكلام.

قد اجتهد الأمير عبد القادر في جعل أسلوب في جل كتاباته متقاربا مع أسلوب "الآخر" الذي يجاوره والذي يمارس العربية ببعض الصعوبة فاستعمل مثله كلمات أجنبية مثل: الري {الملك} والقيرا {الحرب} والقوازيط {الصحف} الخ....

وقد استعمل الأمير عبارات شعبية من الدرجة الجزائرية حتى في النصوص الرسمية والمراسلات الهامة والاتفاقيات التي أبرمها مع القادة الفرنسيين، رغبة في الإفهام والفعالية مع "الآخر" ولا يشك في مستوى الأمير عبد القادر الثقافي واللغوي وكذلك تمكن كتابه من العربية وأسرارها، وخير دليل على ذلك أشعاره وكتابه المتوج لأعماله الفكرية الأدبية الذي هو كتاب المواقف".[6]

فمضمون مذكراته التي كتبها بإلحاح من بعض زواره الفرنسيين في فترة الأسر، إن كان يدور حول شخص الأمير ونسبة انتمائه الشريف وذكر ما جرى بينه وبين الجيوش

---

[1] - سورة هود: الآية 119/118.
[2] - سورة البقرة: الآية 256.
[3] - د: يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، تلمسان، ابن خلدون للنشر، 2002م، ص 118.
[4] - الأمير عبد القادر: كتاب المواقف، دمشق، دار اليقظة العربية/ 1966م، ص 96.
[5] - الأمير عبد القادر: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، بيروت، د،ت، ص 111.
[6] - الأمير عبد القادر: كتاب المواقف، ص 223.

الفرنسيين، إلا انه موجه منذ البداية إلى الدفاع عن أفكار خلفية يمكن تلخيصها في ثلاث محاور شكلت جوهر الحوار بينه وبين " الآخر"

الأول: إثبات صحة الرسالة المحمدية وبيان احتوائها لجميع الرسائل السماوية بما في ذلك المسيحية، وبالتالي رسم آفاق واسعة لإمكانية التفاهم بين المسلمين والنصارى.

الثاني: الدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية وإبراز أصالتها التاريخية "واجتماعها مع حضارة الروم في إبراهيم" وذكر ما كان بين العرب والنصارى من مخالطة.[1]

جديرة بأن يبعث اليوم علاقات جديدة للتعاون بين الحضارتين.

الثالث: عدالة قضيته المتمثلة في المطالبة بتنفيذ الاتفاقية التي أبرمها مع ابن ملك فرنسا لنقله إلى ديار الإسلام بالمشرق عندما جنح للسلم.

ومن المناسب أن نسجل أن الرسالة الموسومة "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" التي وجهها الأمير إلى المجمع العلمي الفرنسي بعد أن أدرج اسمه في قائمة أعضائه البارزين، قد حدد إطار موضوعها الفكري ضمن دائرة ثلاثية هي كذلك محورها العقل والعلم والكتابة، إذ من خلال تناوله هذه الركائز الحيوية أراد الأمير أن يعرف "الآخر" بوجهته.[2]

فالعقل والعلم الشرعي والكتابة، هي الركائز التي يقوم عليها عمران الأرض، وبدونها لا يمكن لأي فكر أن ينمو أو يزدهر، فمن هذه العناصر الثلاثة تتولد المعرفة العلمية والفكرية التي تضمن للإنسان التطور وشق طريقه نحو الرقي.

فالعلم المدني متاح وبإمكان البشر والمجتمعان تباشره وتحقق فيه أشواطا عن طريق الخبرة والتجريب وتبادل المعارف والمعلومات، لكن العلم الشرعي يظل من شأن الخالق وحده وتحصيله يتوقف على البعثات السماوية وتواتر رسالات السماء إلى الأرض.

من جهة أخرى ينوه الأمير بالتطور والتفوق العلمي الذي تحقق للأمة الفرنسية {ومن حذا حذوها} في ذلك العصر، ويؤكد ذلك التطور لو اقترن اهتمام ديني أو شرعي مماثل لما ضاهاه تطور آخر في الأهمية والتكامل: "فلو استعملوا مع هذا {العقل العملي} العقل النظري في معرفة الله، وصفاته، وفي معرفة حكمته في خلق السماوات والأرض وما يلزم للإله من الكمال، وأن لا يفعله...لكانوا حازوا المرتبة التي لا تدرك والمزية التي لا تشترك ولكنهم أهملوا استعمال هذه القوة النظرية، حتى إنهم لا يسمع منهم لما ذكر ولا يعثر عليها في كتبهم ناظر..."[3]

أما الكتابة في نظره فهي: "عين العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، وفي الكتابة تعبير عن الضمير، وإذا قيل القلم أحد اللسانين، بل الكتابة أبلغ من اللسان، فان الإنسان يقدر على كتابة ما لا يقدر أن يخاطب به غيره، ويبلغ المقصود حيث لا يمكن الكلام مشافهة".[4]

---

[1] - مذكرات الأمير عبد القادر: تحقيق: د، محمد الصغير بناني وآخرون، ط03، الجزائر، دار الأمة، 1988م، ص 200.

[2] - الأمير عبد القادر: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، ص 118.

[3] - مذكرات الأمير عبد القادر : د، محمد الصغير بنائي وآخرون، ص 65.

[4] - المرجع نفسه، ص 112-113.

ولعل أهم ما يستخلص من نتائج طرح الأمير عبد القادر الذي تضمنته رسالة ذكرى العاقل هو أنه وسع من دائرة الاعتبار بين البشر، فقد لفت الأنظار إلى أن الحضارات التي شيدها الإنسان عديدة، ومواطنها موزعة عبر أنحاء العالم، وهو ما يثبت جدارة الإنسان من حيث هو إنسان وقدرته على أن ينهض بدور البناء وتعمير الأرض.

ولا شك أنها عرض لثقافة الأمير وبيان لمقوماتها التراثية والفكرية، وقد أظهر فيها معرفة بتاريخ الأقوام والحضارات والثقافات والأديان.

لقد كان من المقاصد الملحة التي رمت إليها مرافعة الأمير في ما كتبه وجادل به "الآخر" هو تسديد "الآخر" وتعديل أحكام سلبية حملها خطأ أو نكاية بالإسلام، مثل موقف الغربيين من الجهاد ونعتهم الإسلام بوصمة الدين العدواني، لذا رأينا الأمير يخصص لأشكال الجهاد مثلا وقفات تكررت في أعماله جميعا تشرح حقيقة هذه الشريعة وتبين مراميها وفلسفتها.

ومما تسجله أيضا هو عملية الحوار بين الأمير عبد القادر وبين الفرنسيين قد استرسلت منذ عهد الكفاح المسلح فقد كانت لقاءات مستمرة مع قادة الحرب من أمثال بيجو المارشيال بيجو MARECHAL BUGEAUD،[1] وكذلك مع ممثلي الإدارة الفرنسية ومع الشخصيات المدنية والعسكرية، زيادة عن مراسلاته معهم، الأمر الذي يكون قد هيأ الأمير على أكبر إلى النهوض بمهمة الحوار عن غير تردد، كما أن نشاط الأمير الدبلوماسي، خاصة مع بعض الدول الغربية مثل اسبانيا وبريطانيا وحتى الولايات المتحدة، والذي نهض به بصورة مباشرة أو من خلال المبعوثين كان حلقة ضمن هذا الجهد التواصلي الذي انعقد بين الأمير وبين العالم الغربي.[2]

ومن الطبيعي أيضا أن تنعقد الصلة لذلك الغرض ضمن جو من الاستعداد الروحي والعاطفي الذي كانت تعبر عنه مشاعر الأمير، فإظهار المودة، وإشهار الهوية الأخلاقية، والإعراب عن القيم الإنسانية وما يلازمها من تثمين للعدل، وإكبار للأخوة بين البشر، ورفض الظلم والطغيان بين الأمم كانت هي الأرضية التي تتم عليها تلك الاتصالات.

وفي مرحلة السلم تعزز ذلك الحوار مع "الآخر" لاسيما بعد أن أحتجز الأمير في أسره بفرنسا، فقد كانت السنوات التي قضاها هناك كافية لكي ينعقد فيها الاتصال من جديد بين الحضارتين، من خلال شخصية والجهات التي جاورته.[3]

ومن البديهي القول أن أسر الأمير قد غير جذريا من طبيعة الاتصال، إذ أن القصد من أي شكل من أشكال التواصل والحوار كان تكييف شروط ذلك الحوار، أن تطيع الهزيمة وجعلها قضاء وقدرا. وكان المستعمر قد عودنا منذ دخوله أرض الجزائر على توزيع منشورات

[1] - قائد الجيوش الفرنسية في الجزائر، أبرم مع الأمير اتفاقية يعترف فيها سلطة الأمير على أجزاء كبيرة من الجزائر، عرف بدمويته وارتكابه لعدة مجازر ضد الشعب الجزائري.

[2] - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، تونس، الدار التونسية للنشر، 1974م، ص 172.

[3] -الأمير محمد: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج 02، ط 02، بيروت: دار اليقظة العربية، 1964م، ص 513.

تجعل من احتلاله للبلاد قضاء وقدراً ومشيئة أرادها الله ولا مجال لردها أو الاعتراض عليها.

لقد كان "الآخر" يدرك ما كانت عليه الأمة آنذاك من ركون إلى اليأس والقدرية فسعى من ثمة إلى أن يشغل ذلك الوضع الروحي والسيكولوجي العام على نحو يخدم وجودة في توطيد الاحتلال، من هنا فان محاوراتهم الأمير وهو مأسور، مقيد الإرادة، إنما كان القصد من ورائها هي جعله يتقبل المال على أنه أمر واقع، لا مجال لتغييره.

بل أن مقاصد ذلك الحوار البعيدة كانت أخطر من ذلك، إذ هدفت إلى إلحاق الهزيمة الروحية النفسية بالخصم بعد أن تمت هزيمته العسكرية. وبالرجوع إلى الموضوعات التي أثارها مثلا حوار الماريشال دوماس MARECHAL DAUMAS، مع الأمير،[1] ويتأمل نحوى الأسئلة المطروحة حول الحضارة الإسلامية وموقف الإسلام من المرأة، وبتحسس زاوية النظر التي طرحت منها تلك الأسئلة، نتبين الغاية "الإرباكية" و "التخضعية" التي رمت إليها روح ذلك الحوار.

وسواء أكان الماريشال دوماس واعيا بما كانت تحمله أسئلته من تجريح أو استنقاص لما كانت عليه مدنية وروحية خصمه، أم أن الماريشال كان خالي الذهن لا ينبغي أن يفوتنا هو أن سياق المساجلة كان متفجرا، وأن سائر مستويات العلاقة التي قامت بين الطرفين على قاعدة المنتصر والمنهزم إنما كانت محكومة بمنطق الغلبة الحضارية التي تكشف عنها النزال في الساحة، من هنا اندرجت مادة ذلك الحوار، وأوعزت بالتفاوت، لذا جاء رد الأمير عليها حازما، آية ذلك ما أبداه من تسلح معرفي خاضها به ومهما كان من أمر هذا الطرح الذي تواصل من خلاله الأمير مع بعض الدوائر الغربية وسعي إلى إن يضع لبنة على طريق التفاهم والأخوة بين الضفتين فان الذي لا ريب فيه هو أن مضمونه الإنساني العالي كان الخطوة الأولى والجادة في سبيل إرساء حوار أصيل بين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية الأوروبية.

ان كثيرا من سوء التفاهم الذي يشوش العلاقة "بالآخر" ويحول دون مد جسور معه مردة إلى عدم فك عقدة الاشتباك في مثل هذه القضايا والاستعاضة عنها بالمخاتلة والمداهنة.

فيجب الاعتراف أن هناك نقط افتراق توازي ما عند الغير من نقط اقتراب، ويفترض أن تكون الأخيرة وسيلة لردم الفجوة، وطريقا للتأصيل للحوار الجدي انطلاقا منها، وأنه لا يكون فعالا إلا إذ كان مرجعه التواد التي يستهدف التسامي بالنوع الإنساني على مستوى العلاقة، يبعده عن التحرك في الساحة الخطأ التي تستهلكه وتستنفذ طاقته وقدراته، فالإنسان بالميزان القرآني إنسان الله المختار لخلافته وعمارة أرضه.[2]

[1] - ضابط فرنسي شغل منصب قنصل لدى الأمير، ثم كلف بحراسة الأمير خلال فترة أسره بفرنسا، كتب ترجمة للأمير بعد انتقاله للمشرق.

[2] - الأمير محمد: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ص 73.

ولقد تجسدت هذه الأنماط من الطرح في النص القرآني في دعوته لفتح قنوات الحوار مع المختلفين بالتي هي أحسن، وبعيدا عن ممارسة الوصاية على أفكارهم وما يدينون بمصادقته وصوابه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ العنكبوت 46.[1]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ آل عمران 64.[2]

إن النص القرآني يستبعد المبادرة بالعدوان أصالة، كما أن الموقف من "الآخر" يرتبط دوما بموقف هذا الأخير من "الأنا الإسلامي" الذي كثيرا ما أملت عليه ظروفه التاريخية أن يتكيف مع طبيعة كل مرحلة ويلبس لكل حالة لباسها: إما نعيمها وإما بؤسها من الوضع في الحسبان أنه لا يريد إلا الخير ما استطاع إليه سبيلا حتى في أحلك فترات التوتر.

و لاشك أن انغلاق المسلم على نفسه أملته عوامل الدفاع عن المثل والمبادئ لا المصالح والمنافع، كما يفترض البراءة وحسن النية في العلاقة بالخصم ابتداء، وحتى طارئ الحرب يريد به تقرير هذا المبدأ وإقناع الغير المحارب بضرورة التعايش السلمي، تطبيقا لقوله تعالى: ﴿ }وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ 61 وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ 62 ﴾ سورة الأنفال الآية 61-62.[3]

فالجنوح للسلم الذهاب فيه بعيدا تقريرا للمبادئ الإسلامية، وحتى في حال الخديعة ونقص المواثيق لا يجب على المسلم أن يأسف للخيانة لأن طبيعة المشروع الذي يحمله تقتضي منه أن يتجاوز ويصفح وهي قمة الانتصار.

وحتى تحت وطأة شماتة الأعداء الذين نكثوا عهدهم فعوض تركه حرا ليذهب إلى المشرق عندما وضع حدا لكفاحه سجنوه مع أمه العجوز ونحو المائة من رفاقه الأوفياء، رغم تلك الشدائد المرة لم تتغير سماحة الأمير، وإلى ذلك يشير الجنرال دوماس الذي كان مكلفا بحراسته في السجن: "...انك ستجده أعظم وأجل في محنته منه في عزة انه ما يزال كما عرف عنه يسمو إلى أعلى الدرجات، انك ستجده معتدلا وبسيطا وجذابا متواضعا ثابتا لا يشكو أبدا، معتذرا لأعدائه حتى أولئك الذين مازال يمكن أن يعاني على أيديهم كثيرا ولا يسمح أبدا أن يذكروا بسوء في حضرته، ورغم أنه قد يشكو عن حق المسلمين أو المسيحيين، فإنهم سواء يجدون منه الصفح.."[4]

لقد تصرف الأمير عبد القادر من داخل مرجعياته الفكرية والدينية والحضارية ليصحح بعض الأحكام المسبقة التي أصدرها"الآخر" ضد الإسلام وضد العرب، فنال بذلك مكانة مرموقة في الفكر الإنساني والتراث العالمي بحثا عن سعادة الإنسان في ظل الحرية والقيم

[1] - سورة العنكبوت: الآية 46.
[2] - سورة آل عمران: الآية 64.
[3] - سورة الأنفال: الآية 61-62.
[4] - شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ص 257-258.

والمثل العليا التي يجب أن تتجاوز الأنانيات والسياسات الظرفية التي تعتمد على تحقيق مصالح ضيقة لا تخدم الجنس البشري على المدى المتوسط أو البعيد، بل حتى على الأمد القريب في أحيان كثيرة.

وصحيح أن هذا "الآخر" ارتبطت مواقفه على الدوام بالبدء بالعدوان منذ نشأة أول حملة حربية على الجماعة المسلمة في المدينة المنورة يبتغي استئصالها، وإلى اليوم تمضي هذه الطبيعة العدائية. لهذا "الآخر" حتى أصبح ينظر لها. وكثيرا ما مثلت مرجعيته الفكرية منهجا في الهيمنة وبسط النفوذ وما يتولد عن ذلك من عقدة كبرياء الجنس وإرضاء دوافع الغريزة على حساب الروح.

ومن غير لا شك أن هذا "الآخر" الذي لا يحرص على مد جسور قوامها العدل والإحسان قد حرصه على وضع مصلحته الآنية الذاتية على قائمة الأولويات، لا يستحق التوقف عنده وسيدخل لا محالة في تصادم واحتكاك مع الآخرين، إذ لا أحد ينسحب من مواقفه بالمجان دون مقابل وإلا كان ذلك تنازل عن إنسانيته.

إذن فالعلاقة مع "الآخر" كانت دوما محكومة بالحوار كقيمة إنسانية، ومن حيث المبدأ فان هذا "الآخر" إما أن يكون لنا أخا في الدين أو نظيرا لنا في الخلق.

فالله تعالى يخاطب جميع الناس. لا المؤمن فقط، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات 13.[1] أي أن اختلاف الأمم في نحلهم ومللهم ومعاشاتهم ينبغي أن يكون حافزا لتلاق المعارف وتكامل المصالح لا للتنازع، ولهذا فالحرب. في نظر الأمير عبد القادر وهو المجاهد المغوار- لا تكون مشروعه إلا في حالة الدفاع عن النفس وفي أضيق الحدود ولا يكون هدفها إلا استتباب وهيمنة السلام.

وأطلب الأمير في العديد من مواقفه. كالموقفين 69-71 مثلا في بيان أن الجهاد الأكبر هو جهاد هوى النفس الأمارة بالسوء بتحليتها بالفضائل النافعة الرحيمة بجميع الخلق لقول النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾ فلنستمع إليه وهو يشح في الموقف 73، قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر﴾ انه عليه السلام سمى جهاد الكفار أصغر، لكون جهاد الكفار وقتلهم ليس مقصودا للشارع بالذات.[2]

إذ ليس مقصودا من الجهاد إهلاك مخلوقات الله وإعدامهم وهدم بنيان المولى تعالى وتخريب بلاده، فان الحق - تعالى – ما خلق شيئا في السماوات والأرض وفي بينهما عبثا، وما خلق الجن والإنس إلا لعبادته، وهم عابدون له، وإنما مقصود الشارع دفع شر الكفار وفظع أذاهم عن المسلمين فلو فرض أنه لا يلحق المسلمين أذى من الكافرين ما أبيح قتلهم.[3]

3- الحوار مع رجال الكنيسة:

[1]- سورة الحجرات: الآية 13.

[2] - الأمير عبد القادر: كتاب المواقف، دمشق، دار اليقظة العربية، 1966م، الموقف: 361.

[3] - شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر، ص 269.

لم يلبث أن حاور الأمير عبد القادر طيلة حياته "الآخر"، متمثلا في عسكريين وإداريين ودبلوماسيين ورجال كنيسة، بل حتى في أعضاء الماسونية التي كانت آنذاك مجهولة الهوية والأهداف لدى جل المسلمين وظهرت لهم بمظهر المجتمع العلمي، من أبرز الذين تحاور معهم الأمير عبد القادر شخصية القص ديبوش DUPAUCH، أسقف الجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي، وهو الذي ألف كتابا بعنوان "عبد القادر في قصر أمبواز" عام 1849م، دافع فيه بكل قوة الأمير وعن حقه في الحرية واختيار جهة منفاه بدل الأسر في فرنسا، التي لم تف حكومتها بالعهد الذي أعطته للأمير عبد القادر بأن تنقله إلى المشرق، فوجد نفسه حبيسا فوق أراضيها.

ولعل فترة السلب للحرية التي قضاها الأمير ورفقائه فوق الأراضي الفرنسية وما تعنيه من معاناة وآلام وحسرة، قد أنجبت بالمقابل دخوله في حوار وديني مع زواره من الفرنسيين والأجانب وبما وفره له السجن من مجال للقراءة والكتابة، بما في ذلك تدوين سيرته التي كان يمليها على كاتبة "مصطفى بن التهامي".

كان المحرك الأساسي للحوار هو الدفاع عن أحوال الأمة والتأمل في أحوال المعتدين، والتساؤل عن أسباب الانكسار وعن طبيعة الهوية الحضارية الكبيرة بين الجانبية وأسباب الانكسار وعن طبيعة الهوية الحضارية الكبيرة بين الجانبين وأسباب التفوق التقني والعسكري الهائل للفرنسي.[1]

هذه الانطباعات نقشت في ضمير عبد القادر ووعيه، وجعل ذهنه ينصرف من خلال تأليفه الكتب والرسائل التي تنبه بحذر إلى أهمية الانفتاح العلمي والفكري على العالم الجديد، وأهمية الإسهام الإسلامي.

في الحوار الإنساني القائم في العالم، ونشأت من ثم صداقات له مع مفكرين وقادة فرنسيين واختلط بالمجتمع العلمي الفرنسي حتى أبهرم سبعة أفقه وعمق قراءته، مثقلة بالتراث العلمي القديم دحضته مكتشفات علمية جديدة، إلا أن هذا كان يغيب أمام حضور علمه الواسع بقواعد العلوم واللغة والفلسفة والتاريخ والدين والقانون وغير ذلك، ومن ثم اختاره المجتمع العلمي الفرنسي، وهو أعظم مجمع علم على وجه الأرض آنذاك لكي يكون عضوا فيه، وهي لمحة لها دلالتها الكبيرة ليس فقط على عمق تقدير العلماء هناك للأمير وإنما أيضا على عمق الصلة والمصداقية التي حظي بها الأمير في الأوساط العلمية والفكرية الفرنسية، ودلالة أيضا على كثافة التواصل مع الحياة العلمية والثقافية هناك.[2]

4- مجاهدات الأمير عبد القادر:

المجاهدة أو الرياضة الروحية هي سلوك الصوفي الذي يهدف من ورائها إلى تحقيق مبتغاه المتمثل في تطهير النفس، وتخليصها من الشهوات، والرغبات من أجل تبدل صفاتها، وسلوكها وتصبح المجاهدة شرط أساسي من شروط السلوك في طريق التصوف، ولا يحصل

[1] - يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، تلمسان، ابن خلدون للنشر، 2002م، ص 118.
[2] - نفس المرجع السابق: ص 118.

للسالك شيء من نعمة الطريق إلا بالمجاهدة، وقد أوضح الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .[1]

الله تعالى يسير الحق للذين اجتهدوا في الوصول إليه، والمجاهدة إما أن تكون ظاهرة أو باطنة "ظاهرة كالصوم، الصمت والخلوة والعزلة، وإما تكون باطنة بالقلب لرياضة النفس، وتطهيرها من صفاتها الشريرة".[2]

وقد صرح الأمير في مواقف عدة من مواقفه الصوفية، يقول3 "ورد الوارد أيام السلوك بهذه الآية الكريمة قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾.[4]

فعلمت أن المراد من هذا اللقاء الحث على المجاهدة والرياضة، فانه حصر الإيمان بـ"إنما في المجاهدة بماله ونفسه والمراد بطريق الاعتبار الجهاد الأكبر الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام لأصحابه الكرام". رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" أي أبذلوا جهدكم وطاقاتكم في طلب معرفته الوصول إليه، مستعين على ذلك بأموالكم، أي يبذل ما زاد حاجاتكم من أموالكم في وجوه البر، وأنواع الخيرات، لان السالك إذا كان له مال زائد على ضرورته تعين عليه إخراجه في وجوهه، ولا تعير إخراج المال الزائد في أنواع المجاهدات والرياضيات".

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾.[5]

فالصفا بمعنى تصفية النفس، حتى يزول شرها وجماحها من الصفات الذميمة، والأخلاق اللئيمة، وهي المسمى بالمجاهدات والرياضة والمجاهدة بالأفعال الظاهرة، والرياضة بالأمور الباطنة، ارتباط النفس وتركها للصفات المرذولة شرعا كالحسد. والغضب، والرياء، والبخل وغيرها من الصفات الذميمة.

وتعتبر الأمير أن "إتباع السنة قولاً، وعملاً، وحالاً أعظم جهاد النفس فلا أشق على النفس وأتعب لها من الامتثال للأوامر ظاهرا وباطنا واجتناب النواهي كذلك، وخالفتها عند طلب الشهوات غير الضرورية".[6]

أ- علم المعاملة:

اعتبر مجاهدتين التقوى، والاستقامة بمثابة رتبة ثابتة من رتب الهدى، وقد بين "أن الهدى أنواع، والموصوفون أنواع فمهد، وأهدى، وأعظم هدى، ورضا، وأضل، وأعظم ضلالا".[7]

ورتبها من أدنى مرتبة إلى أعلى مرتبة، وكل مرتبة من مراتب الهدى تعد بمثابة ضلال بالنسبة إلى ما هي أعلى منها مثال ذلك هدى العقل ضلال بالنسبة إلى هدى أهل الشهود.

---

[1] - سورة العنكبوت: الآية 69.

[2] - نيكلسون ، الصوفية في الإسلام، ترجمة وتعليق نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 02، 2002م، ص 49.

[3] - الأمير عبد القدر ، المواقف والفيوضات السيوحية، الموقف 69، ص 127-128.

[4] - سورة الحجرات، الآية (15).

[5] - سورة البقرة: الآية 157.

[6] - الأمير عبد القادر: المواقف والفيوضات السبوحية، الموقف 71، ص 131.

[7] - المرجع السابق، الموقف 118، ص 219.

والعيان، فتقابل مجاهدين التقوى والاستقامة عند الأمير مرتبة الأهدى بمعنى مرتبة الإيمان الوسطي، فسماء تعد سقف المهتدى والأرض هي القاعدة التي يرتقي منها صاحبها إلى السماء الأعظم.

ويرى أن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم [1] يقول: "أن الهداية إلى الطريق المستقيم، جنس لانهاية لأفراده، لأن الحق تعالى أمر عباده بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، في كل ركعة من ركعات الصلاة، الفريضة، والنافلة، وفي غير الصلاة، والهداية هي العلامة على المقصود، والصراط المستقيم هو أهل معرفته تعالى لا نهاية لها" وفي هذا الصدد يقول تعالى: ﴿ أهدنا الصِرَاطَ المُسْتَقِيْمِ ﴾.[2]

الصراط المستقيم هو الصراط الذي أمرنا الله تعالى بإتباعه، والمشي عليه، وهذا ما مصله الأمير في مجاهداته، وملازمة طريقته.

اعتبر أن السالكون في طريق علم المعاملة هم "أهل الفرقان هم أهل الرسول صلى الله عليه وسلم الداعون إلى إقامة الشرائع الظاهرة، والسلوك على سبيل السنة المطهرة، التي هي أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، و أفعاله ظاهرا، والمشي على طريق أصحاب المعاملات، وهذه مرتبة الرسالة، والقائمون بها هم المجتهدون مطلقا، أصحاب المذاهب".[3]

ب-علم المكاشفة:

يعتبر علم المكاشفة بمثابة العلم الذي ينير للصوفي الطريق حتى يتضح له الحق، ومعرفة حقائق الوجود، وما عليه سواء تمثل في الله وصفاته، وأفعاله، وكذا أحكامه، وقضائه وقدره. وحكمته من خلق الكون، ويظهر موقف الأمير من المجاهدة {علم المكاشفة} في مواقف عدة منها ما جاء في قوله:[4] {وقد أمرني الحق تعالى بالتحدث بالنعم بالأمر العام لرسوله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: [5]﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ لأن الأمر له صلى الله عليه وسلم أمر لأمته إلا ما ثبت اختصاصه به، وأمرني بالخصوص مرارا، بإشارة هذه الآية الشريفة سورة الضحى، فهذه الآية الكريمة ألقين عليه بالاتقاء الغيبي مراراً عديدة، ومما ألقي عليه فيها "أن المراد بالنعمة هنا، نعمة العلم والمعرفة بالله تعالى، والعلم بما جاءت به الرسل –عليهم الصلاة والسلام- من المعاملات، والأمور مجازيا لنسبة إليه، والمراد بالتحدث بها إنشاؤها، وبثها لمستحقيها المستعدين لقبولها، ادمًا كل علم يصلح لكل الناس، و لا كل الناس يصلح لكل الناس، لا كل الناس يصلح لكل علم، بل لكل علم أهل لهم استعدادا لقبوله، وهمة، والالتفات إلى تحصيله، أو يكون المراد إظهار النعمة بما هو أعم من القول، والفعل،...فإذا كانت النعمة مما يظهر بالفعل، أظهرها بالفعل، وان كانت مما يظهر بالقول، أظهرها بالقول، والتحدث بها، على حد ما قيل في الحصد المعرفي.

---

[1] - الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف والفيوضات السبوحية، الموقف 14، ص 60.

[2] - سورة الفاتحة: الآية 06.

[3] - الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف والفيوضات السبوحية، المواقف 159. ص 294.

[4] - المرجع للسابق، الموقف 13، ص 59.

[5] - سورة الضحى:الآية 11.

أعم من أن يكون باللسان، والجنان".[1]
ونعم الله تعالى على الأمير عبد القادر تتمثل في نعمة العلم، والمعرفة، علم المكاشفة فهذا العلم لا يمكن إفصاحه، أو إفشاؤه للعامة، حيث أن لكل علم أهله، حسب استعدادهم وما كل علم لكل الناس خاصة، علم المكاشفة الذي يصل اليه الصوفي من خلال تلك المجاهدة فقط، حيث لا يستطيع أن يخبر به أي أحد، ولا يمكنه التعبير عنه بما كشف له الله تعالى لأنها تعد من الأمور الوجدانية والذوقية.
ويحذر الأمير عبد القادر من كشف هذه العلوم التي يعتبرها سرا يبقى بينه وبين ربه "...فان من العلوم التوحيدية ما لا يجوز إفشاؤها مطلقا بل هو سر بين الله وعبده إلى الموت".[2]
ولهذا نراه شديد التحفظ من ناحية المكاشفات، والخوض فيها، وهذا العلم لا يعرفه إلا أهله، وأصحابه {الذوق والعرفان} وعدَّ هذه الطائفة العليا التي يجب الامتثال لها، وكذا محبتها، "فإياك يا أخي أن يصدك صداً أو يعارضك معارضا عن محبة هذه الطائفة العليا، والتصديق لكلامهم، فان محبتهم عنوان السعادة، والأعراض عنهم، والأعراض عنهم عنوان الشقاوة".[3]
ويأمر الأمير عبد القادر في هذه المجاهدات الوسيلة للوصول إلى العلم بالله، الأمير بطلب "الوسيلة، وهو الشيخ الكامل بالنسبة، العارف بالطريق، وبالعلل العائقة والأمراض المانعة، في الوصول إلى العلم بالله تعالى الحاذق الخير بالمعالجة، والأمزجة والأدوية وما يوافق منها، وقد انعقد إجماع أهل الله تعالى، أنه لابد من الوسيلة، وهو الشيخ في طريق العلم بالله تعالى، ولا تغني عنه الكتب، وذلك عنه ورود الواردات، وبوارق التجليات والواقعات ليبين للمريد المقبول من المردود، والصحيح من السقيم. وأما بداية السلوك فيكتفي بالكتب المصنفة في المعاملة، والمجاهدة المطلقة...أما المجاهدة بغير شيخ لا يعول عليها إلا في النادر فليس هو جهاد واحد على طريق واحد، لأن الاستعدادات مختلفة. والأمزجة متباينة".[4]
*فمن جمله ما سبق يتضح لنا أن الأمير من خلال المجاهدتين المتمثلين في:
-مجاهدة علم المعاملة {علم الظاهر}، والتي تكون عن طريق التقوى، والاستقامة.
-مجاهدة علم المكاشفة {علم الباطن}.
-مرور الصوفي بمجاهدتي التقوى، والاستقامة يصل إلى مجاهدة الكشف والاطلاع والعكس صحيح.

[1] - الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف، الموقف، 83، ص 143-144.
[2] - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف والفيوضات السبوحية، الموقف 158، ص 291.
[3] - المرجع السابق، الموقف 231، ص 414.
[4] -المرجع السابق، الموقف 197، ص 348.

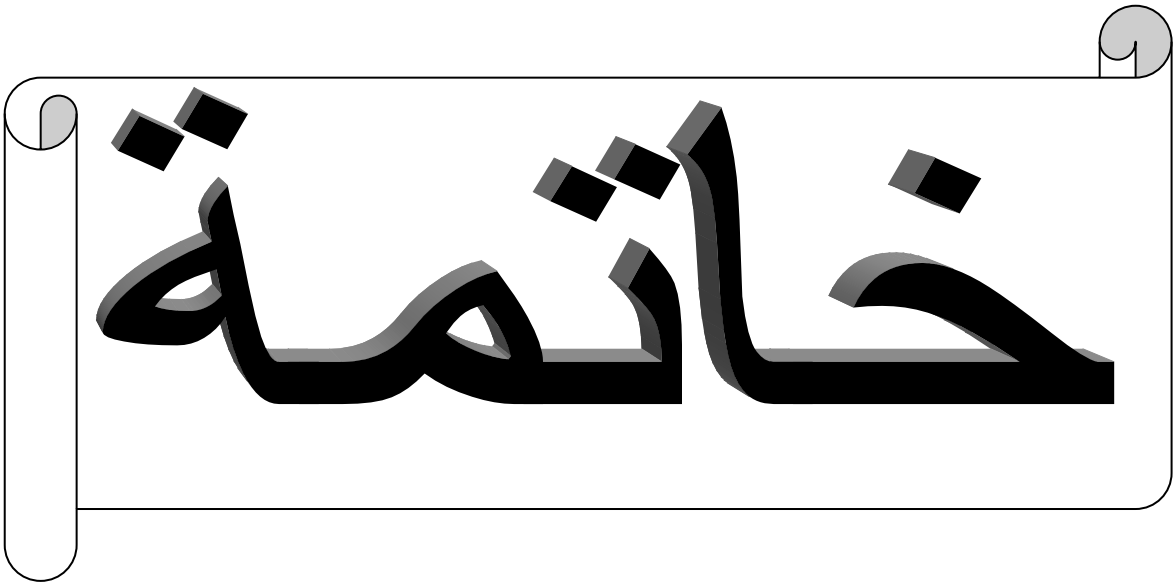
خاتمة

خاتمـــــــة:

وفي الأخير نستنتج أن تصوف الأمير عبد القادر بمثابة نموذج حي لتجربة روحية فكرية فريدة من نوعها في العصر الحديث فهو الرجل الفارس والقائد والمجاهد ورجل الدولة السياسية والعارف المتصوف الذي جمع بين السلوك والعرفان حيث عمل على إحياء التصوف من خلال تجربته، والتصوف هو من مراحل التفكير التي ترتبط بالعقل من اجل فهم حقيقة الأشياء كما أنه يعد خبرة داخلية يتأقلم فيها المتصوف مع عالمه الداخلي، فعرف التصوف الأمير عبد القادر على أنه جهاد مع النفس تحت الأوامر الإلهية وكإجابة للإشكاليات المطروحة سابقة الذكر في المقدمة من خلال هذه الدراسة خلصنا إلى عدة نقاط أهمها:

- ❖ إن مفهوم التصوف كمفهوم شامل وجامع بأنه البقاء مع الله على ما يريد لا تملك شيئا ولا يملك شيئا.
- ❖ التصوف عند الأمير عبد القادر هو ذلك الجهاز ألتنظيري التجريدي، التقليدي في السلوك العملي الذي يكون من دون شك الخلفية المعرفية وأن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم حاضرين مع الله تعالى.

كما توصلنا إلى أن مصادر التصوف عديدة تمثلت في المصدر الفارسي والمصدر المسيحي والمصدر الهندي والمصدر اليوناني إضافة إلى المصدر الإسلامي الخالص.
المراحل التاريخية لتصوف الأمير عبد القادر هي أربعة مراحل: مرحلة التقنين والتعلم والمطالعة ،ومرحلة الفتوة والمرابطة، ومرحلة التأمل والتفكير ومرحلة النضج التغيير.
الأبعاد الحضارية عند الأمير عبد القادر تجلت في الدعوة للإنسان الكامل والأنسنة والدعوة إلى التفتح والأديان والحوار فيما بينهما والتأسيس لمواثيق ومعاهدات تكرسه للحضارة الراقية والمستقرة والدعوة للمحكمة والتحلي بها وأخيرا التأسيس لقراءة متفتحة وهادئة للنص.
-التسامح الديني عند الأمير عبد القادر حيث عرف أثناء وجوده في الجزائر وخارجها يدرك أن المجاهد كان على المستوى من الوعي الإنساني المتفهم لحقيقة الإنسان والإنسانية اعتمد الأمير عبد القادر وسيلة الكتابة وأسلوب المخاطبة في حواره مع الآخر حيث أن تكون له القدرة على أن يعرف الآخر الذي هو شريكه وهذا ما يعرف بالحوار مع الآخر مجاهدة الأمير عبد القادر وهي سلوك صوفي الذي يهدف من ورائها إلى تحقيق مبتغاه المتمثل في تطهير النفس من الشهوات.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1) أبو الوفاء الغيمي التفتازاني، مدخل إلى التصرف الاسلامي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط 03

2) إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصدر، دار الإمام المجددة، القاهرة، مصر، ط01

3) أحمد السرياصي، الغزالي، دار الجبل، بيروت.

4) الأمير محمد، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر، وأخبار الجزائر، ج02، دار اليقظة العربية، ط02، 1964.

5) بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، لبنان، د، ط، 1987.

6) بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، لبنان، د، ط، 1997.

7) بوعرفة عبد القاد وآخرون، تبر الخوتطر في فكر الأمير عبد القادر، دار القدس العربي،ط01، 2010.

8) ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، توت، ممدوح حقي منشورات دار اليقظة العربية، بيروت، 1966.

9) رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الاسلامي مكتبة لبنان، ناشرون، ط1999.

10) السراج الطوسي، اللمعفي تاريخ التصوف الاسلامي صححة تأمل مصطفى الهيداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01.

11) شارل هنري تشرشل، حياة الامير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، تونس، الدار التونسية للنشر، 1974.

12) الشاعر الأمير عبد القادر، جمع وتحقيق وشرح الدكتور العربي نجو، دار ، ط3، 2007.

13) صادق ابن سليم صادق، المصادر العامة للتلقي عند الصوفية عرضا ونقدا، مكتبة الرشد، الرياضي، ط 01.

14) عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي، ط01، 1989.

15) عبد الحليم محمود، قضية التصوف المنقذ من الضلال، دار المعارف، ط05.

16) عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط01، 1993.

17) عبد الفتاح، محمد سيد أحمد، التصوف بين الغزالي وابن تيمية، دار الوفاء، ك01، 2001.

18) عرفات عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة، الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، ط01، 1993.

19) عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكر، مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة والفقه والخطاب القرأني، دار الفكر العربي مع أطفالنا للنشر والتوزيع، ط1، 2011.

20) القشيري، الرسالة القشرية، مكتبة ومطبعو محمد علي صبيح وأولاده، ط. د 1981.

21) محمد حسين مهدي بخيت، الفلسفة الانسانية بين الأصالة والتقليد، عالم الكتب الحديث للنشر، الأردن، ط01، 2013.

22) محمد عبد القادر الجزائري، والأمير عبد القادر، شرح وتعليق الدكتور، ممدوح حقي، منشورات اليقظة العربية، بيروت، ط02، 1964.

23) مذكرات الأمير عبد القادر، ، تحقيق، محمد الصغير نبائي وأخرون، ط03 وآخرون، دار الـأمة، الجزائر، ط03، 1988.

24) ننشارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، أبو القاسم عبد الله، دار الرائد مع عالم المعرفة الجزائر، طبعة خاصة، 2009.

25) نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة وتعليق نور الدين سشربية، مكتبة الخانجي، ط02، 2002.

26) يحي بوعزيز، الأمير عبد القادررائد الكفاح الجزائري، تلمسان، ابن خلدون للنشر، 2002.

المراجع باللغة الفرنسية:

27) ANTOINE ADOLPHE DUPUCH. ABDELKADER AU CHATEAD D'AMBOISE BORDEAUX 1849.

الرسائل:

28) المنحني الصوفي في الشعر العربي الحديث، رسالة، لنيل الماجستير في الأدب العربي الحديث، حفيظة سليماني.

المجلات:

29) العيد العلاوي، التصوف من إشكالية الفهم إلى نية الممارسة، مجلة المخبر، ع08، 2012.

30) مجلة المسالك، عدد02 جوان، جويلية، 1998.

المقالات:

31) عثمان الطاهر المجمد، مقال النصوف الأسلامس، جسم حضاري وانساني بين الشرق والغرب، ج01.

الملاحق

الملحق: نبذة تاريخية حول الأمير عبد القادر.

1)- نسبه:

<<هو عبد القادر بن محي الدين مصطفى بن محمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن خدة بن أحمد بن محمد، بن عبد القوي بن على، بن أحمد، بن عبد القوي بن خالد، بن يوسف، بن أحمد، بن بشار، بن أحمد بن محمد، بن مسعود، بن طاوس إبن يعقوب عبد القوي بن أحمد، إبن محمد، بن إدريس، بن عبد الله، بن الحسن المثني، بن الحسن السبط، بن فاطمة الزهراء، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.>>(118) وهو من سلالة علي بن أبي طالب.

2)- مولده ونشأته:

---

[118])- صيام زكريا، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، ص 13.

ولد الأمير يوم الجمعة في ثلاثة وعشرين من رجب سنة 1222ه، الموافق لسنة 1807م، في قرية القيطنة غربي مدينة معسكر من بلاد الجزائر.[119]
تربى السيد الجليل، العارف النبيل، الناسك العامل، الزاهد المتورع، في حجر والد فكان بذلك موضع إهتمامه وعطفه الخاص.[120]
وفي الرابعة من عمره إلتحق بمدرسة والده في القيطنة وكان الأمير يقرأ ويكتب وهو في الخامسة من عمره وتمكن في مدة وجيزة من اكتساب جانب عظيم من العلم وحفظ القرآن حفظا جيدا وكان على حداثة سنه يدرك مدارك الرجال برؤية نادرة المثال، وأصبح الأمير طالبا في عداد طلبة الفقه وأصول على يد والده عمدة المحققية وعن غيره من علماء بلده، وبعد سنتين تحصل على تسمية حافظ ويعني ذلك أنه أصبح يستطيع ترتيل القرآن عن ظهر قلب وجوامع والاحتفالات وعندما بلغ أربع عشرة سنة، أرسله والده إلى مدرسة وهران التي كانت بإشراف أحمد بن خوجة فبقي فيها سنتين يتعلم العلوم العربية والدينية، فطالع كتب الفلاسفة، وتعلم أصول الشريعة على يد أستاذه "أحمد بن طاهر البطيري" قاضي أرزيو الذي علمه إضافة إلى ذلك الرياضيات والجغرافيا والتاريخ.
وبعد عامين عاد إلى القيطنة، وبدأ يلقي دروسا في جامع الأسرة حيث كان يعقب ويفسر أصعب الآيات والشواهد وأعمقها.
اشتهر في السابعة عشر من عمره بشدة البأس، وقوة البدن، والفروسية، حتى كان يشار إليه بالبنان بين الفرسان لمهارته في ركوب الخيل واللعب على ظهورها، واستطاع أيضا أن ينظم الشعر ومقايسه، ولا سبق له أن تلقى أصوله ومبادئه على يد أستاذ خبير في فن الشعر، فجمع بين السيف والقلم.
وفي الربيع الثاني 1241ه عام 1825م، قام الأمير عبد القادر ووالده محي الدين، بأداء فريضة الحج، فكانت هذه الرحلة للتعرف على الأوضاع في عدة بلدان عربية، خلال سنتين كتونس والعراق وسوريا وليبيا.[121]
ثم عاد إلى القيطنة سنة 1825م، وبعد دخول فرنسا إلى الجزائر قاوم الأمير الاحتلال بعدما تمت مبايعته من قبل قسم كبير من الغرب الجزائري يوم 28 نوفمبر 1832م.
استمر الجهاد خمسة عشرة سنة، إضطر الأمير في نهايتها إلى التسليم بعدما غدروا به الخونة وعملاء فرنسا وقد اتخذ من دمشق مقاما له.[122]

3)- مرضه ووفاته:

تعالت صيحات الكثير من الأصدقاء والأحبة حول وفاة الأمير عبر برقيات التعازي وقصائد التأبين والرثاء وهو لا زال على قيد الحياة يسمح بها، فنشرت الصحافة إشاعة نبأ وفته سنة 1926م فرد صوته الحي عليهم قائلا[123]<< إن الموت لابد منه

---

[119])- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوف وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، دط، 1988، ص 29.
[120])- عبد المجيد بيرم، مذكرات الأمير عبد القادر شركة دار الأمة للنشر، د ط، 2007، ص 46.
[121])- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوف وشاعرا، ص 32، بتصرف.
[122])- المرجع السابق، ص 32.
[123])- صيام زكريا، ديوان الأمير عبد القادر، ص 55، يتصرف.

عند نهاية الأجل والحمد لله الذي أراني وأسمعني ما يقال في جانبي من الخير بعدي وهذا نادر الوقوع وغريب الاتفاق.>>[124]

في هذا القول بين الأمير أن الموت سنة الله في الحياة، حامدا وشاكرا له لمعايشته موقف الناس بعد موته، وهو حي يرزق، والذي لا يختلف إثنان عن شرفه قيمته وخيره وكل أعماله الصالحة.

تمتع الأمير بصحة جيدة في شبابه على عكس أخر أيام حياته التي أصيب فيها بمرض تراوح بين الشدة والخفة على خطفه إلى الرفيق الأعلى، وذلك في منتصف ليلة السبت 19 رجب عام 1300ه الموافق 24 مايو 1883م، في قصره بمصيف عن عمر يناهز 76 عاما، تاركا وراءه إرثا عظيما في خدمة الجزائر نقل جثمانه إلى داره بدمشق، ودفن إلى جانب محي الدين المغربي وبعد استقلال الجزائر نقل جثمانه 1965م إلى مقبرة العالية إلى جانب محمد بوضياف.[125]

لم يترك الأمير بابا لم يطرقه فقد نبغ في الفقه وعلم الكلام والشعر ومن أشهر أثاره كتاب المرافق في التصوف ورسالة، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل وديوانه الشعري، يعد شعره مرآة عاكسة لدراسته الفقهية والكلامية.

ومن أبرز صفاته حبه للفطرة والبعد عن الزخرف والميل إلى التصوف والتعصب.[126]

---

[124])- صيام زكريا، ديوان الأمير عبد القادر، ص55.

[125])- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د ط، ص 69 بتصرف.

[126])- أحمد محمد المختر، في الأدب والنصوص والنقد والتزاحم الأدبية، مصلحة الطباعة للمعهد التربوي الوطني الجزائري، ص 63، بتصرف.

الفهرس

فهرس الصفحة.

مقدمة	
الفصل الأول: مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر والتصوف الإسلامي.	
1-مفهوم التصوف	01
أ-لغة	01
ب-اصطلاحا	03
2-التصوف الإسلامي ونشأته.	06
3-التصوف في بلاد المغرب.	12
4-التصوف عند الأمير عبد القادر.	15
5-مصادر التصوف عند الأمير عبد القادر.	17
الفصل الثاني: النزعة والأبعاد الإنسانية في التصوف عند الأمير عبد القادر.	
1-مفهوم النزعة الإنسانية في الإسلام.	20
2-الأسباب التي دفعت الأمير عبد القادر على إتباع طريق التصوف.	20
3-المراحل التاريخية لتصوف الأمير عبد القادر.	24
4-الأبعاد الحضارية في التصوف عند الأمير عبد القادر.	28
الفصل الثالث: التسامح والحوار عند الأمير عبد القادر ومعاهداته.	
1-التسامح الديني عند الأمير عبد القادر.	36
2-الأمير عبد القادر والحوار مع الأخر.	38
3-الحوار مع رجال الكنيسة.	46
4-مجاهدات الأمير عبد القادر.	47
الخاتمة.	54
قائمة المصادر والمراجع.	57